أثر الفراشة
بنكهة طبية

د. لمى محمد   د. غفار محمد

أثر الفراشة

بنكهة طبية

"SHRINK"

رحلات في عوالم الطب النفسي، الطب الباطني والروحانيات...

د. لَمَى مُحَمَّد   د. غِفَار مُحَمَّد

الحواريّة : أدب من نوع آخر، ابتكرته طبيبة نفسيّة وكاتبة ليصلح لهذا الزمن الافتراضي.

أثر الفراشة في الحوارية : أسلوب ابتكره طبيب يحترف تشخيص الأمراض النادرة، كاتب يريد من المختلفين أن يستمروا...

أثر الفراشة في الحواريّة :

لا هي رواية ولا قصة، بل حيوات من الأدب الواقعي الساحر، الواقع الذي عالجه خيال الكاتبيَن، غيّر فيه أو أضاف عليه.. فتتابع الفصول كأثر الفراشة ..

أنتم هنا في عالم آخر، وإن تشابه مع عالمكم، ليس هو.

Shrink*:

شرينك*: هي كلمة من اللغة المحكيّة العاميّة الأمريكية تستخدم للطبيب النفسي أو غيره من متخصصي الصحة النفسية.

مرة أخرى:

أنت هنا في عالم الخيال، وكل تشابه مع الواقع في الأسماء و كثير من الأماكن والأحداث، هو محض صدفة..

إلى والدينا:

نور الدين و سلوى..

لا ألقاب توفيكما حقكما...

الحواريات:

الأولى: **ملائكة تعيش بيننا**

الثانية : **كرة أمبادوقليس**

الثالثة : **تيلوميراز**

الرابعة : **كارما**

الخامسة : **حلاوة الروح**

السادسة : **أطفال خارقون**

السابعة : **عبقري بالصدفة**

الثامنة : **الألم حارس الحياة**

التاسعة : **لعنة الفراشة**

مقدمة :

في قلب نظرية الفوضى، ينبثق مفهوم **أثر الفراشة** من فرضية تقول إن رفرفة جناحي فراشة في غابة بعيدة قد تُحدث، عبر سلسلة معقدة من التغيرات، إعصارًا في مكان آخر من العالم. هذا الأثر الرمزي لا يعبّر عن العلاقة السببية الخطية، بل عن الترابط المتداخل بين الأحداث الصغيرة والكوارث الكبرى، عن هشاشة التوازنات، وعن استحالة التنبؤ بمآلات الأشياء.

أما **تأثير الدومينو**، فمعروف بأنه تسلسل حتمي للأحداث؛ سقوط قطعة واحدة يؤدي إلى سقوط باقي القطع بانتظام لا مفاجآت فيه، كأنما كل لحظة مشروطة بسابقتها في لعبة ميكانيكية مبرمجة. وعلى عكس أثر الفراشة، فإن الدومينو يُفترض فيه البساطة والوضوح.

و هذه الرواية ، على نحو بديع، تزاوج بين الأثرين : تتبنى من الفراشة المفاجآت، ومن الدومينو الارتباط؛ فيصوغ بذلك نصًا عضويًا، تُفضي كل تفصيلة فيه إلى التالية، لا بالضرورة عبر منطق سببي مباشر، بل أحيانًا بانحراف شعوري، أو عبر لمحة عابرة تولّد عالمًا من التداعيات.

حين نستلهم أثر الفراشة كأداة سردية، فإننا نمنح الرواية نفسًا حيًّا، يجعل من كل فصل نواةً لزلزالٍ قادم، ومن كل كلمة مُهملة شرارة لاحتمالٍ شعريّ أو دراميّ. ليس المقصود أن يفسّر كل حدث ما يليه، بل أن يمهّد له دون وعي، أن يُسهم في تشكيل سياق لا يدرك القارئ ملامحه إلا بعد مضي الفصول.

بهذا المنطق، يصبح بناء الرواية فعلاً عضويًا متصاعدًا ، و ليس مجرد سرد متتالٍ، بل نموٌ خفيّ يشبه تنامي الكائنات أو تعقّد النسيج العصبي.

كل فصل إذًا هو رفرفة جناح: لا نعلم إن كانت ستثير عاصفة، أم لن تُترك إلا كأثر باهتٍ في وجدان القارئ، لكننا نعلم يقينًا أن الرواية دونها ستفقد توازنها الكامل.

في روايتنا، ليس ثمة فصل يتكرر أو يُعاد، لكن ثمة ظلالًا تتعقب بعضها البعض. فكل فصل ينبثق من سابقه كغيومٍ تتكاثر في سماء الحكاية. الشخصيات لا تُبتر فجأة، بل يُعاد تشكيلها عبر نظرات جديدة، المواقف لا تُنسى بل تتحوّر وتُستعاد في ظلال أخرى. حتى الفراغات - الأشياء التي لم تُذكر - تلعب دورًا في رسم القادم.

والأثر الأعمق لهذا التتابع هو إحساس القارئ بأن الرواية تُكتَب من داخله، لا فقط من قلم الكاتب. إنه يرى كيف أن حدثًا بسيطًا في الصفحة العاشرة يقود إلى انكسار قلبٍ في الصفحة الخمسين، وكيف أن جملة عابرة عن الخوف تُثمر قرارًا مصيريًا بعد فصول عديدة. بهذا، تتحول القراءة إلى تجربة شبيهة بتأمل في خريطة زمنية: كل نقطة متصلة، وكل خط ينمو على كتف خط آخر.

الروايات التي تُبنى على أثر الفراشة لا تبحث عن الذروة، بل عن توزيع الذرى، عن جعل كل فصل بمثابة مركزٍ صغير للكون. وهكذا، لا تكون البداية هي المقدمة فقط، ولا النهاية هي الخاتمة وحدها، بل تتوزع النهايات والبدايات عبر النص، في تتابع من الانبعاثات الأدبية التي تجعل من الرواية كائنًا يتنفس.

هذا النمط في البناء يجعل القارئ يعود إلى الوراء كما يمضي إلى الأمام؛ يكتشف أن المعاني لا تكتمل بقراءتها فقط، بل بفهم ما تسببت به

لاحقًا. وبهذا، فإن كل فصل هو أثر فراشة أدبي: لا لأنه بسيط، بل لأنه يُحدث ما لا يمكن التنبؤ به، ويعيد تشكيل النصوص القادمة بعمق غير مباشر.

إذن :

في هذه الرواية، لا تُبنى الحبكة على قرارات كبيرة، بل على تفاصيل صغيرة تُنبت دوائر تتوسع. كل فصل هو رفرفة. كل رفرفة تُثير صدى في مكان بعيد من النص. وحين يصل القارئ إلى الفصل الأخير، يدرك أن البداية لم تكن مقدمة، بل شرارة أولى لكونٍ أدبي تشعّب في ذاكرته دون أن ينتبه. هذه ليست رواية تُروى، بل رواية تُترجّع أصداؤها. أثر الفراشة هنا ليس استعارة فقط، بل هندسة خفية تحكم قلب الحكاية، من أول رفرفة حتى آخر انطفاء.

ملائكة تعيش بيننا

– إن الواقع، يا عزيزي، لم يجلب للناس سوى البؤس المتكرر، الألم المتوارث، والخذلان الملوّن بشتى الأعذار.

كلّ ما في هذا العالم متآكل: السياسة تنهش ذاتها، الاقتصاد يلتهم الفقراء، والحبّ يتآكل بين الإعلانات وتعاليم النجاة السريعة.

فلنجرّب شيئًا مختلفًا...

فلنكتب عن الغد.

عن الغد كما نتخيّله، لا كما يُفرض علينا.

عن مدن تُضاء بالضحكات، لا بالمصابيح.

عن أسواق لا تبيع القلوب المستعملة، ومكتبات لا تضع حدودًا بين العلم والسحر.

لنكتب عن الجنيّات اللواتي يمشين بيننا ولا نراهن،

عن ساكنات الكواكب الأخرى اللواتي انتصرن للحب والعدل فغادرن كوكبنا المتعَب باكرًا

عن عرّافات الحب اللاتي يقرأن المصير في نبضات القلب لا في خطوط اليد.

لنكتب في الفلسفة، ونُعيد تعريف الإنسان.

لنكتب في الأدب، ونخلق أبطالًا لا ينتصرون بالسيوف بل بالأمل.

لنكتب في العلم، لا لنشرح الحقائق فقط، بل لنسبر المعجزة خلف كل اكتشاف.

لنكتب حول الحب، لا كقصة انتهت، بل كطاقة تبدأ عند كلّ خفقة.

لنكتب عن الفن، لا كترف، بل كصوت العاشق حين يخجل من قول أنا أحبّك ..

لنكتب عن الأخلاق، لا كقوانين صارمة، بل كموسيقى داخلية تنظم إيقاع أرواحنا.

عن الرياضة، لا كسباق للغلبة، بل كلغة جسدية للحياة.

لنكتب عن الحياة، لا كما هي، بل كما ينبغي أن تكون.

– وكيف سنفعل كل هذا؟

– نكتب في الطب بشكل عام و في النفسي على وجه أكثر تحديداً.

ليس الطب كعلم جاف، بل كبوابة بين الحقيقة والخيال، بين العقل والحلم ، بين ما نحياه وما نرجوه.

نكتب حيث تتقاطع الروح مع الدماغ، وتجلس القصائد على سرير التحليل، ويعترف الإنسان بكلّ ما لا يجرؤ على قوله إلا لصفحةٍ بيضاء أو لصديقٍ من ورق.

بهذا، نعيد تشكيل العالم... لا بنصوصٍ واقعيةٍ تزيد الواقع واقعًا، بل بحروفٍ تفتح النوافذ لمن لا نوافذ له.

فالكلمة، حين تكتب من القلب، تصير نيزكًا لا يصطدم بالأرض... بل يوقظها ...

****

لقد أعلنتُ استسلامي... لا على هيئة بيان ولا دمعة، بل في صمتٍ ثقيلٍ كالرصاص.

أصبحت أيامي متشابهات، نسخًا رديئة من بعضها، كأن الزمن خجل مني فتوقف عن التجديد.

هل تعرفون ماذا يعني ذلك ؟

يعني أن اليوم مثل البارحة، مثل الذي سبقه، والغد... غائم، مشوش، لا يهمّ إن جاء أو لم يأتِ.

في السنة الماضية، ازداد وزني كثيرًا.

أصبح الطعام صديقي الوحيد، ووسيلتي للثأر من هذه الحياة العبثية القاسية.

ربما هو الشيء الوحيد الذي أشعر أن لي عليه سلطة، أنني أتحكم به، ولو تحكم بي هو بالمقابل.

بشرتي؟

كانت صافية كالخزف.

أما الآن، فقد امتلأت شاماتٍ شمسية و تصبغات.

دبغتها الشمس، وجار عليها إهمالي، وسكّنها القلق والأرق،

كأن وجهي لم يعد بيتي، بل أرضًا مستباحة!

نظرتُ إلى أكبر شامة، كأنها مهاجرة استوطنت ما لا يخصها.

همستُ لها بتعب:

–الأرض أرضي.. وجهي ليس لكم.

فأجابتني، بصفاقة رصينة :

– نحن هنا بفضل الشمس، وبسبب أنكِ –يا وطننا– خذلتِ خلاياكِ، نسيتِ أن تعتني بنا، تركتنا بلا ظلّ... فغدونا ظلّك.

تأملت عينيّ في المرآة، كانتا تغوران في سوادٍ كئيب.

لم تعدا نافذتين... بل سردابين.

ميتتان، كأن التعب قد أمسك بريقهما وقطفه للأبد.

ومع ذلك، شيءٌ ما خلف الزجاج لم يكن ميتًا.

تابعتُ تنظيف بشرتي، برفق المستسلم لا الحريص.

وكلما مسحتُ بقايا المساحيق، شعرتُ أني أكشف عن امرأة لا تزال هناك... كامنة.

كانت المرآة تتنفس.

نعم... ليست المرآة، بل أنا.

شيء ما ينبض... صغير، هادئ، لكنه حيّ.

أيقظني من طوفاني في عالم الموت صوت المحمول :

- **ليلى**.. تخرجين معنا اليوم؟

- إلى أين؟

- نشرب قهوة ونتمشى قليلاً..

- ليس لدي الطاقة ولا الرغبة، تعالوا عندي إن أردتم..

- نريد أن نتنفس قليلاً...

- حاولوا...

- سنرى...أنت أيضاً حاولي...

- سأرى...

لم يحاول أحد.

لم يتنفس أحد.

لم أرَ أحدًا.

وإن كانت شاماتي الشمسية لا تزال تتحدث،

فقد تذكّرت أنني ما زلت هنا، في هذا المستشفى الذي علّمني كيف يتحول الصدر إلى ساحة حرب...

بعد سرطان الثدي، لم تعد الحياة كما كانت، ولا أنا كما كنت.

لكن، في هذه اللحظة، لم أكتب شيئًا...

لم أخرج، ولم يتصل أحد...

ورغم كل ذلك، حين نظرت إلى المرآة مجددًا،

كان هناك شيء... لا هو موت، ولا شامة، ولا تصبغ.

كان نبضًا.

كأنه الحياة تقول لي، من وراء الزجاج :

–لستِ وحيدة، ما دمتِ ترينني.

مصر/ القاهرة

دخلت **بتول**...

بخطوات هادئة تُشبه تمتمة صلاةٍ، وبهيئة من تمرّنت طويلًا على أن تحب العالم رغم كسوره.

كانت ممرضة، نعم، لكن لا ككلّ الممرضات...

كانت بتول قطعة من شجرات السرو: طويلة، نحيلة، خضراء القلب في عزّ المواسم اليابسة، تنحني للرياح، لكنها لا تتكسر.

دخلت إلى غرفة الطبيب **علّام همّام**، ذي الثمانية والخمسين عامًا، الأخصائي في الطب النفسي بمستشفى بهمان ، ذاك المستشفى الذي لم يكن مجرد مبنى لعلاج الاضطرابات، بل كان بمثابة ملجأ صامت لأرواح تعبت من صخب الحياة.

علّام، بجبهته العريضة التي تجمعت عندها تجاعيد الحكمة، ووجهه الذي يشبه كتابًا قرأه الزمن سطرًا سطرًا، رفع عينيه عندما فتحت بتول الباب...

ابتسم لها كعادته، لا لأنّه بخير، بل لأنه يعرف أن من يدخلون غرفته ينهكون دون أن يظهر عليهم شيء.

في داخل هذا القسم من المستشفى، حيث يُلملم البشر شتاتهم، لا تشبه الممرضات أحدًا...

إنهنّ أرواحٌ تُشفَى وهي تُشفي.

قلوبٌ واسعة تسع كلّ شيء : نوبة بكاء، صمتًا دام أسبوعًا، أو نظرة ضياع في عيون شاب لم يعد يعرف الفرق بين الحاضر والذكرى.

في زمنٍ مضى، كان قسم الطب النفسي منفى اجتماعيًّا.

الناس كانوا يدعونه : مشفى المجانين ..

وكانت الممرضة تُتهم إن اختارت العمل هنا، كأنها خانت المهنة أو انتمت إلى الطائفة الخطأ من البشر.

لكن الزمن يدور..

واليوم، بعد أن سُرقت الطمأنينة من أرصفة البيوت، وبعد أن صار القلق ضيفًا لا يخرج،

عادت القلوب النقية إلى طريقها، تعود واحدة تلو الأخرى إلى مشفى بهمان، تبحث عن معنى، عن رحمة، عن خلاص.

بتول كانت تعرف هذا كلّه...

ليس فقط لأنها رأت كثيرًا، بل لأنها نزفت كثيرًا.

منذ سنوات، خسرت ابنتها الوحيدة...

انتحرت، بلا رسالة وداع، بلا تفسير،

فقط غرفة فارغة وصورة معلّقة على الجدار، ودمعة لا تجفّ.

ومنذ ذلك اليوم، قررت بتول أن تظل حيّة،

أن تضيء للآخرين الطريق الذي تاهت فيه ابنتها...

أن تكون يدًا تمسك بأكتاف متعبة، أو حضنًا لمن لا يملك حضنًا،
أن تُشفى، لا لتنسى، بل لتُكمل ما لم تقدر ابنتها على احتماله.

● بتول : صباح الخير بروفيسور...

○ علّام : صباح النور بتول، كيف حالك اليوم ؟

● بتول: بخير... الحمد لله، الطلاب جاهزون للجولة الصباحية على المرضى.

○ علّام : حسناً، ثوانٍ وأكون جاهزاً بدوري، هل من تطورات جديدة على حالات المرضى ؟

● بتول : فقط المريضة ليلى متوترة للغاية، تتفوه بكلام غريب...

○ علّام : كلام غريب ! من قبيل ماذا؟

● بتول : بأن المذنّب اقترب و سيدمر العالم، وأشياء من هذا القبيل...

○ علّام : هل أعطيتموها مهدئاً ؟

● بتول : بالطبع، وأعطيناها الدواء مضاد الذهان أيضاً، لكن لا بد من مرور الوقت كي يسري مفعوله، من دقائق عادت اليها الحالة، فقلنا تراها أولاً قبل أن نعطيها المهدئ مجدداً.

○ علّام : تصرف مثالي ، شكراً.. سأراها أولًا.

أنهى البروفيسورعلّام أعماله المكتبيّة، وخرج الى البهو حيث يجتمع طلاب الطب مستعدين للجولة الصباحية على المرضى.

الموجودون في فريق الطب النفسي اليوم :

أربعة أطباء، ثلاث طبيبات، معالج نفسي، وأخصائية اجتماعية.

● علّام: صباح الخير جميعاً، جاهزون للجولة الصباحية ؟

○ الجميع بصوت واحد : صباح النور بروفيسور، طبعاً...

● علّام : هيا بنا أيها الفريق الممتاز، سنبدأ من الغرفة السادسة لنعاين المريضة ليلى، قيل لي أنها متوترة للغاية ...

ابتسم أحد الطلاب واسمه هاني ..

○ هاني : أجل إنها متوترة للغاية، ليس ذلك فحسب، بل تتفوه بكلمات غريبة ومضحكة أيضاً، مرض الفصام غريب للغاية ، ستضحك من قلبك بروفيسور عندما تسمعها..

رمقه المعالج النفسي أيمن بنظرة جادة، ملؤها العتاب... في حين همس الطبيب علام بصوت هادئ ..

● علّام : لا أعتقد أنّ هاني يعني ما خانه به التعبير، الأمراض النفسية كأس سيمر على كل الناس ، ستزورنا جميعاً أو زارتنا قبلاً، أنا شخصياً عانيت القلق والأرق في الماضي... كما يجب علينا ألا نغفل عن الدرس الأول في الطب النفسي وهو احترام المريض النفسي كإنسان.. وسنتعلم معاً الدرس الثاني الأهم على الإطلاق، قريباً...

ارتبك هاني، خاصة بعد نظرة المعالج النفسي أيمن وطريقة البروفسور علّام المحترمة في الإشارة إلى الخطأ...

○ هاني : أعتذر بروفيسور، لم أقصد الإساءة، المريض إنسان مثلنا بالطبع وعلينا احترام إنسانيته، أنا أيضاً عانيت القلق، الأرق.. والاكتئاب أيضاً.. آسف جداً، لم أقصد الإساءة لشخصها.

سارعت تالة لتغيير الموضوع أمام ارتباك هاني ..

○ تالة : وما هو الدرس الثاني الذي تتحدث عنه بروفيسور؟

● علّام : بعد غد الثلاثاء لدي محاضرة في مدرج المشفى أتمنى منكم جميعاً حضورها إن رغبتم بمعرفة هذا الدرس.. المحاضرة، بمناسبة تأسيس **الحركة المناهضة للطب النفسي**، أو ما يعرّف خطأ بالحركة (المُحَارِبة) للطب النفسي...

○الاخصائية الاجتماعية زينة : بالطبع، سنكون أول الحاضرين، محاضراتك لا تفوت بروفيسور.

● علّام : المريضة ليلى مصابة بسرطان ثدي تأخر استئصاله على ما أذكر، فأحدث نقيلة إلى الدماغ، وبعد استئصال هذه النقيلة، ومع العلاج الكيماوي، حدث الذهان Psychosis، لذلك لا نسمي مرضها فصاماً، بل ذهان بسبب مرض عضوي، هل يستطيع أحدكم معرفة سبب توجهنا هذا ؟

○ سيرين : لأن ظهور الأعراض حاد وفجائي، مرتبط بالأعراض الجسدية، فلو رسمنا الخط الزمني لحياة المريضة، لشاهدنا سرطان الثدي، ثم النقيلة إلى الدماغ، وبعد ذلك ظهر الذهان.

○ تالة : كما أن عمر المريضة يقترح سبب ثانوي للذهان أيضاً ويوجه أكثر إلى كونه مرض نفسي جسدي.. الأعراض في المرض النفسي الأوليّ كالفصام، تبدأ بشكل تدريجي، ومن دون أعراض جسدية وعمر المريض في الغالب أصغر ..

● علّام : ممتاز، تماماً كما وضحتم ، والمريضة ليلى حالياً شخصية ارتيابية بشدة، فقد كانت كاتبة روايات بوليسية، ومحققة مهمة في شرطة القاهرة مما جعل خيالها الخصب مرتعاً لهلاوس متنوعة ..

○المعالج النفسي أيمن: معك حق دكتور، لقد خسرت الشرطة خدماتها بشكل مأساوي حيث كانت تعمل مؤخراً محققة استشارية قبل قصة

السرطان هذه، وفوق هذا كله، فهي لم ترَ ابنتها الوحيدة من سنوات، و قد قمت شخصياً بالتكلم مع الابنة **سوزان** ورجوتها أن تحضر.

○ هان ي: هل تعتقد دكتور علّام بوجود سبب جسدي عضوي لغالبية الأمراض النفسيّة ؟

● علّام مبتسماً : ذكرتني بطالبتي المميزة **غاردينيا الأبيض**، والتي هي اليوم من أشهر أطباء الطب النفسي الجسدي..

سألت نفس السؤال من سنوات...
بالمناسبة، هي ستعطيكم بعض المحاضرات هذا العام، وستشرح لنا تفصيلاً عن جواب سؤالك الرائع هاني...

دخل البروفيسور وفريق عمل الطب النفسي إلى الغرفة السادسة.. كانت المريضة ليلى **49** سنة متوترة بالفعل وتصيح بصوت عالٍ.

● ليلى: لقد اقترب كثيراً و سيدمر الأرض، احذروا النيزك القادم.. يا إلهي ..

اقترب علّام منها، ثم قال بصوت مطمئن وهادئ :

○ علام : لا تخافي ليلى، يكتشف العلماء النيازك ويدمرونها في الفضاء قبل وصولها إلى الأرض، لا خوف علينا، لا تقلقي.

هدأت ليلى قليلاً :

●متأكد؟!

○ علّام : بالطبع، الآن عليك أن تحاولي النوم قليلاً، لأنك لم تنامي جيداً في الليل...

هدأت هنا ليلى، و يبدو أن الدواء مضاد الذهان، بلغ مفعوله المثالي، استلقت على السرير ولدهشة أعضاء الفريق سرعان ما غرقت في نوم عميق.

نظر البروفيسور إلى الطلاب..

- علّام : فعل مضاد الذهان فعله ...

صمت قليلاً، ثم أضاف :

ليلى في حالتها الراهنة وأمثالها ملائكة تعيش بيننا، هم رادارات تستقبل إشارات الوحي السماوي في كثير من الأحيان، هذا ما أحب أن أؤمن به.. لا أعرف أن كان صحيحاً أم لا، لكنه يجعلني أستمر بكل طاقتي وأملي في هذا العالم.

ابتسم المعالج النفسي أيمن، واندهش البقية من التشبيه...

- رنيم : رادارات، تشبيه غريب للغاية بروفيسور!
- علّام : أجل، ستفهمون ما أقول أكثر في محاضرتي بعد غد...
- سعد : لقد شوقتنا بالفعل بروفيسور.
- علّام مبتسماً : الطب النفسي بكليته مغامرة مشوقة للغاية.. ننتقل الى المريض التالي **مهران**.. احكِ لنا عنه يا سالي..

لخصت سالي قصة المريض مهران بمهارة...

- سالي : هو مريض مصاب **بالفصام**، يستجيب بشكل رائع للعلاج، **الدوبامين** يعود لمعدلاته الطبيعية والمرض يسير نحو الهجوع، لذلك أتوقع تخريجه من المستشفى قريباً جداً ..

○علّام : و هل لديه مكان يسكن فيه يا زينة ؟

○ الأخصائية الاجتماعيّة زينة : نعم تواصلتُ مع أهله، وسكنه موجود ، تقبّل والداه فكرة مرضه النفسي أخيراً ، لذا سيقومون بالعناية به، ومراعاته سلوكيّاً تبعاً لتعليمات أيمن.

● علّام : ما رأيك أيمن، هل سيقومون بمراعاة مرضه ؟

○ المعالج النفسي أيمن : على الأغلب، لقد داروا به على الدّجالين والسحرة لسنوات، فساء وضعه، و يبدو أنهم قد تعلموا من الدرس.

● علّام : شكراً لكما، ما نفع فريق الطب النفسي دون معالج نفسي فذ، وأخصائية اجتماعية نشيطة.. سؤال لك سالي، أيُّ الأعراض الفصامية تستجيب على العلاج أولاً السلبية أم الإيجابية ؟

○ سالي : الأعراض الإيجابية أولاً **كالإهلاسات**، أما الأعراض السلبية **كالانسحاب الاجتماعي**، فتستمر لفترة أطول.

●علّام: أحسنت سالي.. ننتقل الى المريضة **يسرى** المصابة بالاكتئاب الكبير..

مرت الجولة الصباحية كنسمةٍ خاطفةٍ بين زهورٍ مرهقةٍ تنتظر قطرة ماء،

مرّت مسرعة لكنها تركت أثرًا لا يُمحى...

فالوقت، حين تعيشه بقلبك لا بساعاتك، يتبخّر كالعطر من قارورة مفتوحة.

كانت الممرضة بتول تعرف هذا السرّ.

تعرف أن الشغف ليس رفاهية...

بل طوق نجاة.

تعرف أن الروح المتعبة لا تشفى بالروتين، بل بأن ترى المعنى في كل خطوة، في كل نظرة، في كل يد تُصافح الألم.

الشغف، ذاك النور الذي يسكن في أعمق نقطة من القلب،

هو ما يجعل أصعب الحالات النفسية، تلك التي يتهامس عنها الناس بخوف، تبدو لها كمجرد محطات مؤقتة في رحلة أكبر.

رحلة يُعيد فيها الإنسان بناء ذاته من الرماد،

يتعلم فيها أن الجراح ليست عيبًا، بل توقيعًا على دفتر الحياة،

أن الضعف جزء أصيل من القوة،

وأن هشاشة الإنسان ليست نقصًا، بل دعوة إلى أن تستنجد بشيء أسمى :

بروح الله في داخلك.

وها هي بتول، بين جدران المستشفى البيضاء،

تمضي يومها دون ضجر،

تشرب قهوتها بين سرير وسرير، تبتسم لمن نسي كيف يبتسم،

تمسك يد من لا يستطيع أن يمسك بيد نفسه...

وفي عينيها شغفٌ لا تراه إلا حين تصمت وتُصغي،

حين تدرك أن كل هذه الأرواح، التي تراها هشّة ،

تحمل في داخلها بذورًا مقدّسة،

تنتظر فقط يدًا تحبّها كي تنبت.

في كل جولة، كانت تقترب أكثر من فهم المعادلة العجيبة للحياة :

أن كل لحظة تعب، كل لحظة ألم، كل لحظة فقد...

لم تكن إلا تمهيدًا لتكون أنت،

لا كما أرادك الناس، ولا كما خفت أن تكون،

بل كما كان يجب أن تكون منذ البداية...

إنسانًا مكسوًّا بالضعف، لكن ممتلئًا بالمعنى.

****

عاد البروفيسور علّام همّام إلى منزله في ظهيرة يومٍ عادي، كما يعود الفكر المتعب إلى صمته بعد محاضرة طويلة.

الشمس مالت قليلاً، والهواء كان ثقيلاً بشيءٍ لا يُرى، لا يُسمّى، يشبه بقايا حلمٍ لم يكتمل...

وعند إحدى الإشارات المرورية، قبل الوصول إلى بيته بقليل، اصطدمت به سيارة زرقاء من الخلف، فاهتزت سيارته قليلاً، وتكسّر أحد المصابيح الخلفية كما يتشقق صمت القلب حين يُلمَس فجأة.

ترجّل بهدوء، لم يكن غاضبًا، بل مستغربًا.

السيارة الزرقاء توقفت خلفه مباشرة، وخرجت منها امرأة في أواخر الثلاثينات، أنيقة رغم ارتباكها، تحمل ملامح امرأة تقاتل الوقت أكثر مما تقاتل الحياة.

كانت هي الدكتورة **نيل الحكيم**، طبيبة أمراض جلدية، ذات سمعة واسعة

في الجامعة، تعرفه من اسمه وتاريخه، كما يعرف الطلاب أسماء القمم التي لن يصلوها.

اقتربت منه مسرعة، كلماتها تسبق تنفّسها :

- نيل : أعتذر بشدة، كنت مسرعة لأن مربيّة أطفالي السيدة **ابتسام** في إجازة، فيجب أن أصل البيت قبل وصول الأولاد من المدرسة كي أجهز الغداء و أرتب الشتات.. آسفة جداً، سأتكفل بجميع مصاريف التصليح ووقته أيضاً، تستطيع أخذ سيارتي في الأسبوع القادم..

- علّام : حصل خير دكتورة نيل، سأتكفل بالموضوع، لا تهتمي.

- نيل : تشرفت برؤية شخصك الكريم، سمعتك الطيبة سابقة لك.

جميلٌ هو علّام، ليس بوسامته، بل بذلك الصفاء الداخلي الذي يجعل حتى الحوادث العابرة تمر كنسمة خفيفة لا تعكر مزاج قلبه.

عاد إلى منزله كما يعود العارفون إلى صمتهم بعد صلاة، مدركًا أن الحياة ليست إلا اختبارات صغيرة في جلدها، عميقة في مغزاها.

سلّم على زوجته نسمة، التي كانت تجلس كعادتها قرب النافذة، تترجم رواية فرنسية إلى العربية، وبين يديها فنجان شاي ونصف تفاحة.

ابتسمت له ابتسامة تعبق بعطر الأمومة، بحكمة امرأة تقف على عتبة الأربعين وهي تحمل العالم في قلبها، لا في حقائب السفر.

كانت نسمة قد اختارت أن تترك عملها الرسمي لتكون قريبة من نسيم، طفلها الوحيد، الطفل الذي خلقته الحياة مختلفًا، صامتًا، لكنه حين يمسك بقلم رصاص، يجعل العالم كله مرآةً لما يرى .. و تشغل وقتها بترجمة

الروايات الفرنسية كي تكسب مزيداً من المال يسند نفقات المنزل الباهظة ..

ابنها نسيم، ذلك الكائن النقي المكرم بهبة **التوحد** ، جلس في زاوية الغرفة منغلقا على واقعه ، يرسم على دفتره رسمة جديدة.

لا يتكلم كثيرًا، لكنه يحكي من خلال الألوان، يكتب بلغته الخاصة، التي لا تحتاج إلى قواعد صرف أو نحْو، بل تحتاج إلى قلب يُصغي بعين.

اقترب علّام منه، وجثا على ركبتيه ليرى ما يرسمه.

هذه المرة كانت السماء زرقاء بشكل غير اعتيادي، مرسومة بخطوط متعرجة، وكأنها خزان من الحزن المتماوج.

أحس بشيء في قلبه يهتز، ذلك الإحساس الغريب الذي ينتابك حين ترى شيئًا مألوفًا لكنه جديد، كأنك تشاهد حلمك مرسومًا بيد طفل.

رفع علّام عينيه إلى وجه نسيم، و همس بنسمة أبوية مفعمة بالحنان :

- علّام : أرني ما الذي رسمته اليوم يا فنان ؟

مدّ نسيم يده بدفتر الرسم إلى والده دون أن ينظر إليه، قلّب علّام الصفحات وصولاً إلى الصفحة الأخيرة ليجد رسمة عن حادث سير بين سيارتين عند إشارة المرور تماماً كما حدث معه منذ قليل ، فهل تفاجأ أبو نسيم من المصادفة ؟

اطلاقاً...

في قاموس علّام أساساً، إن وجدت مفاجآت نادرة، فلا وجود لكلمة مصادفة، بل كل شيء محسوب وبدقة.

و هذه ليست المرة الأولى التي يتنبأ فيها ابنه نسيم بالمستقبل، بل فعلها من قبل مراراً وتكراراً معززاً نظرية والده عن الوجود ونشوء الأفكار...

● علّام : يا سلام يا نسيم يا نسيم ! أحسنت يا شاطر، رسم مذهل ومتقن، ما الذي سنفعله الآن ؟ كالعادة نضع الرسمة في إطار ونعلقها في غرفة الرسام الكبير نسيم.. موافق ؟

هزّ نسيم رأسه دون كلام، فاحتضنه علّام بمحبة.

○ نسمة : ما أخبار العمل اليوم ؟

● علّام : لا جديد، تعرضت لحادث سير عند إشارة مروريّة.. تماماً كما رسمها نسيم في دفتره..

○ نسمة : فعلها مجدداً...

● علّام : أجل ، ومن وجهات نظري الفلسفية الروحانية – و ليس العلميّة طبعاً – فإنّ مرضى التوحد هم ملائكة بين يدي الله متفرغون بكامل حواسهم وجوارحهم للإصغاء لما تقوله السماء دون تشويش من رغبات داخلية أو مؤثرات خارجية... ذهب نقي لم تشبه شائبة، هو بركة بيتنا، وعنوان من عناوين الحظ في حياتنا.

○ نسمة : حبيب قلبي، يشبه ابيه.. ما أخبار محاضرتك ؟

● علّام : بعد غد، سأتطرق فيها إلى نشوء الأفكار لدى البشر ضمن الحديث عن الحركة المناهضة للطب النفسي، ما أخبارك أنت، كيف هي الترجمة ؟

○ نسمة : جيدة أنهيت نصف الرواية حتى الآن، سأنهيها قريباً، وأسلِّم العمل بعدها.

● علّام : إنجاز عظيم، لقد اختصرت الكثير من الوقت، ما هو عنوان

الرواية ؟

○ نسمة : الإلهام الرباني...

● علّام : جميل، عنوان غامض و معبر، سأقرأها بالطبع عندما تنتهين من ترجمتها من الفرنسية...

نسمة... اسمٌ يُشبه نغمةً خافتةً على آلة كمان مهجورة في مساء خريفي طويل. معلمة لغة فرنسية سابقة، تركت دفاتر التعليم وصفوف المراهقين المملوءة بالضجيج، لتتفرّغ بكل كيانها لابنها الوحيد نسيم، ذي الطبيعة الخاصة التي لا تُشبه شيئاً في العالم سوى الحلم المتكسّر على صفحة ماء.

لم يكن قرارها بالتفرغ للأمومة ناتجًا عن تضحية فحسب، بل عن فهم عميق للمهمّة المقدّسة التي أوكلها إليها القدر. ومع كل لحظة فراغ يتركها نسيم غارقًا في رسومه الساحرة، كانت نسمة تغوص بدورها في عوالم الكتب الفرنسية العتيقة، تُترجم الروايات وكأنها تلد من لغتها الأم روحًا جديدة تُطوّق بالعربية، تُهديها للعالم، وكأنها تقول :

(أنا أمّ الكلمات أيضًا، كما أنا أمّ نسيم)

جمالها؟

كان من ذلك النوع النادر الذي تنساه المرآة وتذكره الأرواح. جمال رقيق، لا يُعلن عن نفسه، ولا يلهث خلف الضوء، بل يسكن في الظلال، في طرف العين، وفي الانحناءة العفوية للكتف، في همس الحزن النبيل خلف ابتسامة. لم تعبث بجمالها إبرة جراح، ولم تستعن بهندسة الجسد لتُقنع العالم بأنها ما زالت هنا ..

هي تعرف أنها هنا.

وكفى.

عيناها... كأنهما وُلدتا من حضن ياسمينتين تفتحتا مع الفجر.

أنفها المعقوف ؟ حكاية قديمة لطفلة سقطت ربما، أو ضحكت أكثر مما يجب، أو ربما لم تسقط أبداً، لكن القدر قرر أن يمنح وجهها حكمة مبكرة في هيئة انكسار جميل.

أما شفتيها فكانتا رقيقتين كورقة ورد جفّت قليلاً في كتابٍ قديم، لكنها ما زالت تفوح بعطرها كلما فُتح.

وحين تبتسم... آه، حين تبتسم، تشعر أنك لست في هذا العالم. ابتسامتها لا تُنهي مشاكلك، بل تُربّت عليها وتقول لها همسًا:

رأيتِ كم من أزهار الياسمين سقطت بفعل الريح ؟ صارت ترابًا، لكن ذلك التراب سيُطعم شجرة أخرى، أو زهرة برية، أو ربما، سيصير أنا وأنتِ، بعد حين. فكل موت في هذا الكون، إن هو إلا حياة في طريقٍ آخر ..

****

في المساء، حين سكن المنزل واستلقى الصمت بين الجدران، استيقظ علّام من قيلولته وهو لا يزال عالقًا بين أطياف الحلم وملوحة الحقيقة. نهض بخطوات متأنية نحو المطبخ، أعد فنجان قهوته كطقسٍ شخصيّ لا يتنازل عنه، واتجه إلى غرفة الجلوس.

كان نسيم هناك، غارقًا في عالمه، يرسم بخطوطه الدقيقة وشفافيته المعهودة.

اقترب علّام ليرى ما يرسمه الصغير هذه المرة، فتجمد في مكانه.

رسمة نيزك ضخم يندفع بقوة رهيبة نحو الأرض.

ارتجف قلبه دون أن يفهم السبب فورًا... ثم تذكّر.

ليلى... مريضته ذات البصيرة الغريبة، قالت له صباحًا كلمات عن النيزك ، عن الاصطدام ، عن التحول الكبير..

الكون لا يكرّر إشاراته عبثًا، هكذا علّمته الروحانيات.

تكرار الرمز، هو رسالة مؤكدّة، لا تقبل الصدفة.

تناول هاتفه وكتب كلمة واحدة في محرك البحث :

New Meteor

ظهرت له النتائج.

الخبر الأول أتى صادماً : وكالة ناسا تؤكد مرور نيزك ضخم قرب الأرض في الأيام القليلة القادمة.

آمن ، حتى الآن.

هو يمرّ قريبًا... وسيغادر دون أن يمسّ الأرض. حدثٌ روتيني، يتكرر عشرات المرات سنويًا، على حد وصف المقال.

لكن الفرق أن هذا النيزك كبير... كبير بما يكفي لزحزحة الأفكار، لا الصفائح الأرضية فقط.

أغمض علّام عينيه للحظات.

ثم همس في داخله :

(النيازك الكبيرة تشبه قصص الحب العظيمة...

لا تمرّ دون أن تترك ندبة، أو قصيدة، أو وطنًا جديدًا يولد فينا بعد خراب ..)

رفع رأسه نحو نسيم، الطفل الذي لا يتكلم كثيرًا، لكنه يرسم العالم كما يراه، بلا ضجيج.

هل كان هذا النيزك رسالته ؟

هل رأى نسيم، ما لا نراه جميعًا ؟

كرة

أمبادوقليس

صباح يوم الثلاثاء

قاعة المحاضرات:

صعد البروفيسور علّام إلى منصة المحاضرات كما يصعد كاهن قديم إلى معبد الحكمة، يحمل على كتفيه عبء الكلمات لا ليُثقِل بها العقول، بل ليحرّر الأرواح. وقف هناك بثقة لا تزعزعها أنواء الحياة، وابتسم للحضور ابتسامة هادئة، كأنها ضوء أول النهار يتسلل من نافذة دير، لا يوقظ النائمين بقدر ما يطمئن التائهين.

لم يكن مجرد أستاذ جامعي يدرّس الطب النفسي، بل كان أشبه بشاعر يشرح قوانين الروح في عصرٍ استهلكته ماديات لا تهتم بالقلب ولا بعلاماته السرية. بدت عيناه، البنيتان كقهوة حلوة، تخفيان أعماقًا سحيقة من الحنان المقنّع و النوايا الصافية، ومن التجارب التي خاضها بصمت لا يفهمه إلا من سقط مرارًا داخل ذاته وخرج منها واقفًا على قدميه، ممتنًا للرحلة.

حدّق الطلاب فيه، بعضهم مأخوذ بكاريزماه الهادئة، وبعضهم يحدّق في دفتر ملاحظاته محاولًا مواكبة عمق ذلك الرجل الذي بدا وكأنه خرج للتو من كتابٍ كتبه الزمن، لا الطباعة.

- علّام : شكراً لكم جميعاً على حضوركم الكريم ...

أكثركم من طلاب الطب الذين أرى في أعينهم مستقبلنا الواعد...

المحور الأول لحديث اليوم هو احتفاؤنا بذكرى تأسيس الحركة المناهضة للطب النفسي.. وهي حركة على عكس ما يشير اسمها ليست ضد العلاج النفسي للأمراض النفسية، بل أتت كردة فعل على تاريخ من العلاجات الوحشيّة بشكل متطرف للأمراض النفسية قبل ظهور الحركة...

هذه الحركة كانت من العوامل الأساس التي تسببت في تغيير المرجع التشخيصي الأمريكي في الطب النفسي.

إنّ تاريخ الطب النفسي يعج بشتى أشكال الطرق الغريبة، غير المنطقيّة والهمجيّة في علاج المرضى النفسيين، من الحرق والضرب منذ قرون الى إراقة الدماء، الحقن بالفيروسات، ثقب الجمجمة، ونزع الأعضاء.. حدث ذلك كثيراً، ولمدة طويلة، حتى فترة قريبة من القرن الماضي..

إن لكل فعل في هذا الكون رد فعل يساويه بالمقدار ويعاكسه بالاتجاه بدءاً من الجسيمات دون الذرية كالإلكترون وجسيمه المضاد البوزترون وصولًا الى السياسة العالمية بوجود القطبين السياسيين بين المعسكر الشرقي والغربي والحرب الباردة بينهما..

ابتسم علّام بثقة :

- علّام : لن نتكلم في السياسة، لكن ما حدث في مثل هذا اليوم لا يشذ عن القاعدة بظهور الحركة المناهضة للطب النفسي في وجه الطب النفسي القديم...

أما **المحور الثاني** لحديثنا، فهو نظرية روحانية تخصني لوحدي، أطرحها اليوم من وجهة نظر فلسفية.

هذا الجزء أو هذه النظرية تختص بنشوء الأفكار، آلية ذلك وكيف أن كثيراً من المرضى النفسيين ليسوا فقط بشر مثلنا علينا احترامهم، بل أكثر من ذلك، هم يشبهون الملائكة، بين يدي الله.. يبلغنا الكثير من الرسائل من خلالهم.. من خلال قصص حيواتهم.

بالعودة الى المحور الأول: كما قلنا آنفاً لكل شيء في هذا الكون شيء مضاد له، أول من نادى بذلك هو **الفيلسوف أمبادوقليس** قبل الميلاد بحوالي خمسمئة عام، هذا الفيلسوف سبق سقراط وغيره من الحكماء الذين اعتدنا سماع أسمائهم يومياً.. لكن أعماله لم تحظَ كغيره بأشد الاهتمام، أو أنها قد غُيّبت من قبل المنتفعين ومن لا يريدون الحياة

هادئة ولا كروية بل مضلعها تسعفهم لجذبها إلى قناعاتهم ...

ماذا يعني هذا ؟ سأخبركم...

أسس أمبادوقليس لنظرية العناصر الأربعة في الكون الماء، التراب الهواء، والنار.. وأضاف عليهما قوتان كشرط لازم للاستمرار، من يتوقع ما القوتين ؟

صمت الحضور لدقائق، قبل أن ترد سيرين :

- سيرين : من ضمن المشاعر بروفسور؟

- علّام : رائع.. رائع.. لقد أضاف أمبادوقليس المحبة والكراهيّة، ليس ذلك فقط، بل قال إن هذين الشعورين إما أن يخلطا العناصر الأربعة ببعضها أو يفصلونها تماماً.

في الحالة الأسمى للكون، أول كون في هذا الكون..

الكون الذي صنعه الخالق، كانت تلك العناصر صافية ونقيّة.. وكانت مشاعر الحب والكره في حالة من السلام والاطمئنان، كهالة مقدسة.. بشكل الكرة الأرضية...

كان الحب في أول صفحة من كتاب أعمارنا كبشر، ومن كتاب عمر الكون، الموجود الأول، والله محبة...

كان الحب هو الملك، الحاكم والمسيطر، بينما انتشرت قوى الكراهية بمقادير صغيرة هنا وهناك، فضعف تأثيرها على قلوب الأحياء، لكنها كانت مفيدة في الحفاظ على شكل الكرة !

لكن، كما نعلم جميعاً، لا تسير الحياة هادئة في كل وقت.. الكراهية ستغير أماكنها، ستتغلغل في قلب العناصر الأربعة، وتحل الروابط المسالمة، فتظهر الكوارث الأخلاقية والطبيعية معاً...

طيب، قد نرى كأطباء وعلماء أن هذه النظرية تبدو غريبة بعض

الشيء وساذجة قليلاً، لكن التطور العلمي أثبت أنها تملك الكثير من الصحة في طياتها ، فكما قلنا آنفاً الكون بأكمله بدءاً من الجسيمات الأولية والجسيمات المضادة لها إلى المادة المظلمة والمجرات، مكون من أضداد، كل شيء له نقيض، كالمد والجزر، و كشعار التاو ، الدائرة بنصفين أبيض وأسود .

يقال إن أمبادوقليس تعرض للضغوط من كل حدب وصوب، نعلم جميعاً أن الأفكار الجديدة محاربة إلى أن يُكتب لها النجاح...

لُوحِقَ وهُوجمَ ككثير من الأولياء والقديسين عبر التاريخ، وصفوه بالهرطقة والمس الشيطاني...

ضيقوا عليه الخناق حتى صار كالطفل اليتيم في كلّ منا عندما ينسف الغدر كوكب حلمه...

تحكي الحواديت أنه وبعد كل هذا الهجوم، ألقى أمبادوقليس بنفسه في فوهة **بركان إتنا** في إيطاليا، نفسه البركان المسمى **بجبل النار**..

وتقول الأساطير أن هذا البركان أضحى من أعتى وأنشط البراكين في العالم مذ لمّ جسد الفيلسوف...

يقال أيضاً هو لم يقصد الانتحار، بل أنه أراد جسداً جديداً لروح أرهقها تعامل الآخرين مع الجسد القديم...

توقف علّام قليلاً، شرب الماء، ثم سأل الحضور:

- علّام : أي سؤال، تعليق ؟ تعقيب ؟

رفع هاني يده :

- هاني : بروفسور، هل نعتبر ما فعله انتحاراً في عين الطب

النفسي ؟

● علّام : سؤال ممتاز يا هاني، ما رأيكم ؟ من يجاوب على سؤال هاني ؟

رفعت تالة يدها بثقة، ثم قالت:

○ تالة : أظن نعم، انتحار، هو لم يمتلك المرونة النفسية للاستمرار، أو التغيير.. لكني أتساءل هل كان ذلك بدافع التعاسة والاكتئاب، أو بسبب التوهمات في كونه يريد جسداً جديداً...

● علّام : فكرة ممتازة أخرى.. كأطباء نفسيين نعلم أن قتل النفس لعدم القدرة على التأقلم مع الواقع أيّاً كان هو انتحار يجب إيقافه، لكن لا نستطيع الإنكار أن أمبادوقليس ترك لنا حالة من أغرب حالات الانتحار في التاريخ.. بتوصيف حالة أمبادوقليس تبعاً للطب النفسي الحديث يمكننا القول إنه كان لديه طيف من الذهان، ربما تبع اكتئاباً حاداً.. لأن من يعرف الحياة بعمق، يعاني اكتئاباً منطقياً... وجميعاً نرى يومياً حالات كثيرة من الاكتئاب الكبير المترافق مع الذهان.

Major Depressive Disorder with

Psychosis Features

أي أن أمبادوقليس ضحية قديمة لوصمة عار المرض النفسي أو الاختلاف.

شكلت حياة أمبادوقليس الفريدة لبنة أساسية لنشوء الحركة المناهضة للطب النفسي كمضاد للطب النفسي بدورها، روّجت هذه الحركة للفهم السوي والتعامل الانساني مع الاختلاف الفكري أو المرض النفسي إن وجد.

هكذا أصبح لدينا كرة الطب النفسي، مع الصراع داخلها بين الموروث

والمتجدد، تماماً ككل شيء في الكون، كل شيء علاقة، حلم، هدف، عمل.. هو كرة أمبادوقليس بذاتها.

لنرتح قليلاً، انهضوا في مقاعدكم وتحركوا قليلاً، فنتابع...

كانت هذه من عادات علّام لتجنب ملل الطلاب في المحاضرات الطويلة.. لطالما أثار نطّ بعض الطلاب موجات ضحك محببة، تزيل أي ضجر ممكن.

● علّام : تفضلوا بالجلوس مجدداً.. هل أتابع ؟

صاح الطلاب بصوت واحد : تابع يا دكتور...

●علّام: نغادر عالم أمبادوقليس، لنقفز قفزة كبيرة الى الأمام، إلى ستينيات القرن الماضي، لنتعرف على عالم الطبيب **ديفيد كووبر** المؤسس الرئيس للحركة المناهضة للطب النفسي.

ديفيد كان طبيباً من **جنوب إفريقيا**، تخرج من جامعة كيب تاون في جنوب افريقيا، قبل أن يجبره الصراع السياسي في بلاده على الهجرة.

يقال إنه وحين عمله في أحد مشافي لندن، قابل مريضاً مصاباً بالفصام، كان المريض في حالة هياج شديد.. يصيح بصوت عالٍ :

- احترسوا، احموا أوروبا، سيبنى جدار يقسمها قسمين ..

دقّ علّام على الطاولة، ثم سأل :

● علّام : ما رأيكم، ما الذي حدث بعدها ؟ هل صدقوه ؟

همست سالي:

○ سالي : طبعاً لا.. ربما أعطوه دواء...

هز بعض الحضور رؤوسهم.. قال سعد:

○ سعد : ربما أعطوه منوّم...

توالت هزات الرأس من الحضور...

ابتسم علّام...

● علّام : طبعاً، كما توقعتم، جميع الأطباء والمتدربين لم يكترثوا لما يقوله المريض بسبب مرضه، اعتبروها مجرد هلوسات ناتجة عن زيادة في الدوبامين، لكن جملته أثرت في الطبيب كووبر بطريقة غريبة.. شعور غريب حلّق في فضاء روحه كطائر طنان يجيد فنّ الطيران خلفاً...

شعور مشابه ثانٍ كشعور الديجافو انتاب الطبيب الشاب عندما بُني جدار برلين ليفصل ألمانيا عملياً وأوروبا كلها نظرياً بين شقين شرقي تابع لمعسكر الاتحاد السوفيتي وغربي تابع لمعسكر الولايات المتحدة الأمريكية.

ابتسم الدكتور علّام ..

●علّام : مجدداً لن نتحدث في السياسة.. طبعاً نحن العرب نتعامل مع السياسة كتعاملنا مع الطعام، الواقع يفرض ذلك علينا...

ضحك الحضور، تابع علّام:

●علّام : في الحقيقة الاستخدام السياسي للطب النفسي، في قلب أسباب التاريخ المشوه لهذا العلم.. جميعاً نعلم أن السياسة والعلم لا يختلطان... وإن كان الغرب يعيب على الشرق خلط الدين بالسياسة، فلا ألعن من خلط السياسة بالعلم، خاصة في الطب النفسي...

صفق الحضور..

احمرت وجنتي الدكتور علّام وانحنى بتواضع، ثم تابع :

●علّام : طبعاً دكتور كووبر، رأى مريض الفصام فوق أنباء جدار برلين.. وهنا برز تساؤل هام في ذهن كووبر:

(كيف تنشأ الفكرة ؟ كيف يستطيع البعض التنبؤ بأحداث المستقبل حتى بغياب المحاكمة العقلية الجيدة كما حدث مع المريض المصاب بالفصام ؟)

بعد بحث، تفكير وتحليل مطول بما فكر فيه كووبر، وضعتُ بتواضع نظريتي الخاصة ..

ابتسم علّام وتابع:

● علّام : نحن نستحق أن نضع النظريات أيضاً، فنحن أحفاد أول حضارات عرفت الطب النفسي...

ابتسم الحضور، فتابع علّام بصوت عميق:

● علّام : وضعتُ نظريةً لمنشأ الأفكار مفادها :

هنالك في هذا الكون الفسيح أو خارجه، مصدر مُطلِقٌ للأفكار كلها بجميع أنواعها تمامًا، كجهاز الراوتر الذي يطلق الذبذبات من حوله. و في دماغ كل إنسان منا مستقبلات خاصة لبعض هذه الأفكار تماما كجهاز الرادار الذي يرصد الإشارات، هذه المستقبلات تتلقى نوعًا خاصًا فقط من الأفكار خاصة بكل إنسان، مما يفسر الاكتشافات المذهلة التي هبطت على رأس العلماء بغتة دون سابق إنذار أو يفسر قدرة كثير من الناس على التنبؤ ببعض الأحداث الغيبية في مناسبات كثيرة خلال حياتهم، هذا ما سماه كووبر الوحي السماوي الخاص بكل إنسان.. و تصديقاً لرؤى كووبر، ولنظريتي : أنا أب لطفل وحيد

يدعى نسيم عمره عشرة سنوات، مصاب بالتوحد وهذه صورته...

ظهرت صورة لوجه نسيم المفعم بالبراءة على شاشة الإسقاط ..

● علّام : هو مبدع بالرسم، وكثيراً ما رسم لي لوحات تنبأت بشكل مذهل بما سيحدث وآخرها رسم لحادث سير وقع لي في نفس الوقت الذي كان نسيم يرسم الرسمة...

الله وحده يعلم ما الذي يحدث داخل دماغه...

الأفكار الصادرة عن مصدر خاص، يستقبلها دماغ كل منا بشكل خاص.

دماغ مرضى التوحد مثلاً ربما أقل تشويشاً من أدمغة البشر العاديين، لذلك ربما هو يستقبل الأفكار بنقاء وصفاء أكثر..

متى ما استقبلت أدمغتنا الفكرة الهائمة في الفضاء حولنا لمع المصباح فوق رأسنا وولدت فكرة جديدة الى الوجود.

الموضوع برمته مشابه للصبغيات عند الإنسان، فجميع البشر يملكون نفس الصبغيات بنفس الجينات تقريباً، لكن كل إنسان مختلف عن الآخر.. وأكثر من ذلك، الصبغيات نفسها تترجم بشكل مختلف من نمط خلوي لآخر عند الإنسان الواحد، لماذا ؟

بسبب وجود ما يدعى عوامل الانتساخ التي تختلف من فرد لآخر ومن نمط خلوي لآخر في الفرد نفسه وبالتالي تحرض انتساخ جينات محددة فقط في كل خلية، كذلك يمكن القول إن جميع الأفكار تجول الفضاء حولنا، لكن لكل إنسان منا عوامل ترجمة خاصة تترجم فقط بعض تلك الأفكار الهائمة...

يقولون العين لا ترى ما لا يعرفه العقل.. لذلك يرى كلّ منا أي حقيقة، ظاهرة، علاقة أو حلم بعينه الخاصة.. بعين ما يعرف، وما يريد أن

يستقبل من إشارات الأرض والسماء.

أي تعليق ؟ تعقيب ؟

رفع عامر يده، بخجل، وعامر نادراً ما يشارك في المحاضرات :

- عامر : هل هذا يشبه قانون الجذب ؟

صفق علّام:

- علّام : رائع.. نعم، اعمل خيراً تراه، اعمل شراً يلاحقك وأحبابك.. اشكر تزداد النعم، ابطرْ تتقلص الفرص..
اذهب شرقاً يكبر القلب، هاجم غرباً يفترسك سم نكران الجميل...
قانون الجذب، قانون كما تدين تدان، الكارما، كرة أمبادوقليس.. كل ما سبق يدور في نفس العالم الروحاني.. عالم الطاقة...

صفقوا ل عامر...

صفق الجميع...

تابع علّام بهدوء الواثق:

- علّام : أزيدكم من الشعر بيت.. ما حدث لاحقاً في بداية العام التالي **1962** كان سحرياً، أصابت نوبة من الهياج، مريض الفصام ذاته، وبدأ يتحدث عن حرب نووية عالمية ستقع وستدمر الكوكب، الجميع أيضاً لم يعره انتباهاً باستثناء كووبر الذي تذكر جيداً واقعة جدار برلين وشعور الديجافو، فتوجس شراً..

ربما يستقبل دماغ المريض أفكاراً جديدة...

طبعا لم يكن بوسع كووبر فعل أي شيء سوى الانتظار والترقب...

بالفعل في أكتوبر من العام نفسه حدثت أزمة الصواريخ النووية التي زرعها السوفييت في كوبا، فأصبح العالم على شفير حرب نووية بالفعل ، شعر كووبر بالخطر المحدق...

وللغرابة قام المريض المتنبئ ذاته بعد خروجه من المصحة بصب البنزين على جسده وإحراق نفسه، ففارق الحياة بعد أن أنهكه الأذى الذي لا يمكن لنا أن نتخيله...

- الحضور : ثم.. ثم.. ثم..

صمت علّام، وهو ينظر في عيون الطلاب المتسعة دهشةً وفضولاً:

- علّام : ثم، في نفس ذات اليوم الذي أحرق فيه المريض نفسه، حُلّتْ أزمة الصواريخ الكوبية بتسوية سوفيتية أمريكية منقذةً العالم من الدمار النووي...

فهل كانت نهاية ذاك المريض كنهاية الفيلسوف أمبادوقليس الذي احترق في لهيب البركان ؟

هل قدم نفسه قرباناً لحماية الناس أو أنه لم يحتمل اختلافه واكتئابه ؟

يقال إن هذا المريض كان الشرارة التي دفعت الطبيب ديفيد كووبر الى صياغة اسم الحركة المناهضة للطب النفسي لاحقاً والتي تأسست رسمياً عام **1967**...

شرب البروفسور من كأس الماء أمامه، ثم استطرد قائلاً:

- علّام : ألخص لكم محاضرتي الطويلة هذه :

الكون بأكمله من أصغر الجسيمات الى أكبرها عبارة عن أضداد متناقضة، لا يصح الشيء إلا بضده.

قد يكون في لاوعي كثير من المرضى النفسيين قدرات خارقة تجعلهم قادرين على استقبال أفكار تائهة في السماء بصفاء ونقاء دون تشويش أو شائبة، مما يمكنهم من التنبؤ بكثير من أحداث المستقبل المجهولة.

علينا كأطباء نفسيين أن نتواضع، وأن نكون كالغبار تواضعاً في حضرة النفس البشرية وعوالمها الخفية التي لا يعلم العلم فيها إلا القليل.

تعاطفوا مع مرضاكم، ساعدوهم ليكتسبوا المرونة النفسية، المرونة التي تقوينا وتجعل منا سنداً لأرواح كثيرة...

انظروا إلى المرض النفسي بعين الفيلسوف، العالم والطبيب معاً.

للحياة وجوه بشعة كثيرة، المريض النفسي من النقاء ما يجعله عاجزاً عن تحمل البشاعة كلها.

التعاطف الذي تقدمونه لمرضاكم مع الدواء، الحب الطاهر بملكوته وجبروته قادرون على تغيير إنذار أي مرض نفسي، وتحويل الاكتئاب أو ثنائي القطب إلى موهبة تغيّر العالم.

تعلموا قبل الجميع أن أفكار حب الخير، الامتنان، الغفران والتفاؤل ترجع إلينا بطاقتها الإيجابية...
الكراهية، الحقد، الحسد، والتشاؤم ترجع إلى مصدرها أيضاً بطاقتها السلبية...
القضاء هو قانون الجذب وأنت القاضي، أنت تقرر أي الأفكار تعود عليك..
القضاء من عدل الله وفي يدك اختيارات كثيرة، أما القدر هو حكم الله و لا راد لأمره...

أطلتُ عليكم الحديث قليلاً، لكنه موضوع هام ومتشعب، أتمنى أن يكون كل منكم قد استفاد بشيء جديد من هذه المحاضرة..

صمت علّام قليلاً، ثم لمعت عيناه وهو يقول :

● علّام : ستسمعون رأياً مخالفاً في نواحٍ كثيرة في محاضرات الدكتورة غاردينيا الأبيض، أخصائية الطب النفسي الجسدي المميزة، والتي حضرت من أمريكا، في زيارتها السنوية لمصر هذا العام.

شكراً لكم جميعاً على حسن الإصغاء...

نزل البروفيسور علّام من المنصة كما ينزل المايسترو عن خشبة المسرح بعد سمفونية استثنائية، وسط تصفيق كثيف دوّى كأنّه أمواج محيط تصفق لجناحين خفيين حلّقا بها نحو فضاءات جديدة. لم يكن تصفيقًا اعتياديًا، بل أقرب إلى وقوف جمهور كامل على عتبة لحظة مقدسة، يشكر فيها الحياة على هذا العبور الجميل.

وقف الحضور بكله ــــ جسدًا، عقلًا، وقلبًا ــــ يصفّقون لا فقط لعلمٍ نُقل إليهم، بل لدفءٍ انساب إليهم دون أن يشعروا، لوميض إنساني تسلل من بين جُمل علم النفس ليضيء ما في أرواحهم من زوايا منسية.

كان في نزوله هدوء الحكماء، وسكينة من يعرف أنّ أثره قد تجاوز الجدران الأربعة، وأنّ شيئًا ما تغيّر في الوجوه التي أمامه، حتى إن لم ينطق أحد. كانت نظراتهم تقول له ما لم تقله الكلمات :

(لقد لمسْتَ شيئًا فينا لا يُلمَس.)

ربّت على كتف أحد الطلاب قرب الممر بابتسامة صامتة، ومضى ببطء نحو الباب الخلفي، وكأنه لا يريد أن يوقظ منامات صغيرة انغرست في رؤوسهم.

وراءه، بقيت القاعة ممتلئة لا بالأجساد فقط، بل بصدى روحه و كلماته ، كما لو أنه ترك ظله هناك ليكمل المحاضرة، على طريقته.

****

في صباحٍ ملبّد بالحيرة والمشاعر المختلطة، وبين صمت الممرات البيضاء الطويلة، أتى الخبر إلى البروفيسور علّام كما تأتي الريح على شجرة يابسة : المريضة ليلى أصابتها حمى شديدة في الليل، تدهورت حالتها فجأة وبشكل درامي، وكانت على حافة الغياب الأبدي. نُقلت على وجه السرعة إلى وحدة العناية المركزة، حيث يرقد الآن جسدها المرهق بين أنابيب، وأجهزة لا تعرف لغة الخيال، بل تزن الحياة بالميليغرام.

كان أكثر من شعر بالذنب هو الدكتور هاني، الطبيب الشاب الذي تهكّم منذ أيام على كلمات ليلى وتوقعاتها الغريبة، قبل أن تهزّه محاضرة البروفيسور علّام هزًّا عميقًا وتعيد تشكيل بصيرته إزاء أصواتٍ كانت تبدو له في الأمس محض هذيان.

هاني كان شابًا في مفترق العمر، لم تعجنه الحياة بعد. ولد بين أبوين طيبي القلب، مسالمين، جرحهما الزمن ولم يردّ لهما الحياة الكفؤة التي استحقّاها. فقرٌ وكرامة، بساطة ووجع.. نمت في داخله شتلتان متناقضتان : شتلة الاندفاع النقي، وشتلة الشكّ في صدق الحياة و عدالتها.

ولأن النفوس الطيبة لا تعرف المكابرة طويلاً، ولأن الخطأ حين يُعاش بصدق يتحول إلى باب للفهم لا للمذلة، دقّ هاني باب مكتب الدكتور علّام في ذلك الصباح.

لم يتردد، كان صوته هادئًا متهدّجًا، وعيناه تقولان الكثير مما لم تَجرؤ شفتاه على صياغته :

○ هاني : تعلم أنه في اختصاص الطب النفسي الاستشاري/ الطب النفسي الجسدي، نتابع المرضى النفسيين في طوابق الطب الباطني والجراحي وحتى في العناية المركزة.

بالرغم من اهتمامي بطب نفس الطفل، لكني أؤمن بنظرية دكتور غاردينيا الأبيض أن الطب النفسي الجسدي ضرورة لجميع فروع الطب النفسي، وأنوي التعمق فيه بعد التخصص في طب نفس الطفل.

وافق علّام بحبور و تشجيع وهو يرى في هاني نفسه من سنوات طويلة.

****

في مساء خريفي مائل للذهبيّة، جلس البروفيسور علّام على أريكة غرفته القديمة التي يشبه دفؤها صدر أمٍّ متعبة، يُتابع بذهول نشرةً إخبارية طارئة، وقد غابت عنه رائحة القهوة التي لطالما دلّل بها وجدانه كل مساء.

كان وجه المذيعة شاحبًا، متماسكًا كقشرة قهوة تركية لم تُكسر بعد:

ورد الآن :

(النيزك الكبير، الذي رُصد منذ أسابيع، قد انحرف عن مساره فجأة، وبات أقرب إلى الأرض من أي وقت مضى. مركز ناسا أطلق تحذيرًا عالي الدرجة. الاصطدام ممكن... الاحتمال كبير... والكارثة محتملة.)

لم تكن النشرات تكتفي بالتحذير، بل تسللت الرهبة إلى لغة الصور: خريطةٌ رقمية، مسارات حمراء، تقديرات تُعلن احتمال دمار مدن بأكملها، تسونامي بحري، وسيناريوهات تقشعرّ لها الأرواح.

رفع علّام صوته الداخلي ليطغى على جهاز التلفاز، كأنّه يريد أن يسمع الحقيقة أقرب، أو أن يجعلها تفكّر فيه كما يفكّر هو فيها.

قال في نفسه بصوت داخليّ مزلزل :

(ليلى كانت على حق... كانت تقرأ المستقبل من وراء الغيبوبة، والخيال... نحن مَن كنا نيامًا.)

ليلى التي كانت تهمس بجملٍ لا يفهمها أحد، والتي كتبَ عنها الجميع في ملفّها : مريضة توهّم ، لكن النيزك لم يكن وهمًا.

فكّر علّام :

هل يوجد نوع من البشر وُهِبَ القدرة على تلقّي الإشارات من عالم ما خلف الواقع ؟

هل في الجنون بذرة من نبوءة ؟

أم أن العقل البشري، حين يفيض، يسقط في طيفٍ لا نراه إلا حين يلامس حدود الحقيقة ؟

في المقلب الآخر من العالم، كانت الدول الكبرى قد أعلنت حالة الطوارئ.

الولايات المتحدة وروسيا قررتا التدخل.

تحالف نادر، نوويّ، لا لحرب، بل لإنقاذ كوكب.

أُطلقت الصواريخ النووية على أمل كوكب واحد ، أن تدمر النيزك قبل أن يدمره.

وفي لحظةٍ تجمّد فيها الزمن، انشقت السماء كما لو أنها تمزّق الخطايا السبع بيدٍ من نار.

تفتت النيزك في طبقات الجو العليا، بعنف نوويّ تَرافق مع وهج لم ترَ الأرض مثله منذ ولادة الشمس نفسها.

تحوّلت السماء إلى مسرح أسطوري :

شرارات كثيفة، دخان هائل، وانعكاسات نارٍ لا توصف، وكأنّ نجمًا عظيمًا مات فوق سطح الأرض.

في لحظةٍ، عادت الشمس إلى طفولتها، تتلوّن بالأحمر والنار، تحجب نفسها خلف عباءةٍ من الرماد.

سقطت شظايا النيزك في البحر الأبيض المتوسط،

كان بعضها ضخمًا بما يكفي ليُسجّل على خرائط الزلازل.

وبعضها – ويا للمفارقة – سقط في الأراضي المصرية، تلك التي لطالما أنجبت التاريخ والأنبياء والنبوءات.

لكن العالم لم يُبَد.

نجت الأرض.

وانتصر الضوء في آخر لحظةٍ على ظلّ القدر.

في تلك الليلة، وبينما كان علّام يُحدّق في السّماء، تراءت له الكلماتُ مجدداً من قلب الخيال:

(النيازك، كالحبّ العظيم، لا تمرّ دون أن تغيّرنا إلى الأبد)

رنّ هاتفه المحمول...

كان صوته حادًا كصفعة عاطفةٍ على قلب شاعر.

أجاب فورًا.

– ألو؟

جاءه الصوت من الجهة الأخرى، متوترًا، لكنه حامل لارتجافة المعجزة:

– بروفيسور علّام... المريضة ليلى... فتحت عينيها.

لم يصدق أذنيه.

كأنّ تحطم النيزك، كان المفتاح.

كأنّ روح ليلى كانت مرتبطة بانكسار ذلك الجسد الناريّ في السماء.

سقط الهاتف من يده، ولم يسقط قلبه.

ارتفعت نبضاته، وخياله.

ليلى استيقظت، بينما نامت النيازك تحت البحر.

وكأن الأرض نفسها، أرادت أن تعتذر عن جرحها للقلوب الطيبة.

في تلك الليلة، فهم علّام للمرة الأولى، أن ما يسقط من السماء ليس موتًا دائمًا، بل قد يكون حياة في ثوب آخر.

وأنّ ما تسميه الإنسانية نهاية ، قد يكون لدى بعض الأرواح... بداية جديدة.

****

بعد أيام فاجأ الطبيب هاني الجميع في المشفى بإحضاره قلادة تبدو رخيصة الثمن، لكنها تحمل قطعة حجرية غريبة..

○ تالة : ما هذه هاني؟

● هاني : قطعة من حطام النيزك، وصلتني من قريب لي في الإسكندرية، فساعدتني زوجتي على صياغتها بشكل قلادة..

○ تالة : كم هو رائع صديقك هذا...

● هاني : هو كذلك، أصبحنا أصدقاء بعد عداوة، ولا صداقة أقوى من الصداقة بعد العداء...

هذا الصديق سخر مني يوماً لأنني انضممت إلى اختصاص الطب النفسي، قال لي :

– طب هذا يا هاني؟

بعدها ماتت ابنته في حادث سيارة كان يقودها بنفسه، وأصابته متلازمة ما بعد الصدمة/ما بعد الرض النفسي، فغيرت من أفكاره ومن علاقتنا...

أصبحنا مقربين جداً، وبما أنه - كما تعرفون - لا يصح للطبيب النفسي أن يعالج الأقارب ولا الأصدقاء، فهو استشارني في اسم الطبيب المعالج، وحوّلته إلى واحد من أمهر أطباء الإسكندرية.

أرسل لي هذه القلادة مع رسالة مفادها أن حجرة النيزك هذي تعبير امتنان وعرفان جميل و تميمة حظ تحقق الأمنيات و تحجب الشرور كما يؤمن البعض ، وأنا بدوري سأقدمها لمن كانت السبب في تحسني

كطبيب... قررت منحها للسيدة ليلى تعبيراً عن أسفي الشديد لها عن تهكمي على كلامها الذي ثبت أنه حقيقي وصحيح.. أحتاج أن أعتذر بطريقتي، خاصة بعد محاضرة البروفيسور علّام..

○ سالي : إنها قلادة رائعة، لكن لا أظن أننا نستطيع تقديم الهدايا للمرضى.. أليس كذلك دكتور علّام ؟

● علّام : أجل يا هاني، لا نستطيع تقديم الهدايا، لكن تستطيع الاحتفاظ بالقلادة في جيبك، ستكون ذكرى مشجعة لمساعدة مرضى كثر...

لم يكترث هاني بكلام سالي، ولا حتى بتحذير الدكتور علّام الذي قرأ شيئًا غير مريح في عينيه...

لقد قرر، وانتهى الأمر في أعماق قلبه من قبل أن يناقش..

ليلى، التي عبرت بوابة الحياة مرتين، خرجت أخيرًا من العناية المشددة إلى الطابق بهدوء يشبه رجع نَفَسٍ نجا من الغرق.

كان جسدها ضعيفًا كأغصان الخريف، لكن في عينيها برقٌ غامض، كما لو أنها رأت شيئًا لا يحقّ لأحدٍ رؤيته.

وفي الممر، كانت ابنتها سوزان قد وصلت من باريس، بذات النظرة الحادة التي ورثتها عن أمّها، وبحقيبة يدٍ جلدية تختزن شوقَ سنوات غيابٍ لم تبرّره المواعيد ولا المسافات.

كان هاني ينتظر خلف زجاج الممر، لا يتحرّك، لا يتنفس.

وفي جيبه، القلادة.

تلك القلادة الغامضة التي لم يعرف أحد كيف وصلت إلى عنق ليلى معدنها الغريب يشبه لمعان نيزك صغير اصطدم بالقلب ثم هدأ...

خرج هاني من خلف السلم الحجري العتيق كأنّه ظلٌّ يبحث عن جسد، رمى القلادة في الرواق الذي ستعبر منه ليلى الى الحياة مجددا ، كما يُلقى سرٌّ في بئر الزمن.

في اللحظة التي مرّت فيها سوزان بالممر ، توقفت، نظرت إلى القطعة الصغيرة على الأرض، ثم انحنت بهدوء، التقطتها، قلبتها بين يديها،

تأملت نقوشها القديمة المجهولة،

ثم – بلا سبب واضح – وضعتها حول عنق والدتها..

كان هاني قد عاد إلى عتمة الدرج، يراقبها من الخلف كأنه يُسقِط شيئًا أخيرًا من داخله،

وابتسم...

ابتسامة غريبة، حادة، لا تشبه الفرح.

ابتسامة من يعرف أن ما فعله، لن يفهمه أحد...

لكن الزمن سيفهم.

لم تكن القلادة مجرد قطعة مجوهرات.

كانت نبوءة.

وكانت – ربما – بداية الحكاية الحقيقية التي لم تُروَ بعد.

تيلوميراز

عكس النهار؟ لا... ليس الليل ، بل الأرق..

الليل استراحة كونية، أما الأرق فهو تمرد الروح على السكون.

عكس النجاح ؟ ليس الفشل أبدًا.

الفشل مجرد درب، حافة وعراء يتعلم منه من سقط.

العكس الحقيقي للنجاح هو الاستسلام،

أن تُطفئ جذوة المحاولة في صدرك، أن تضع راية أحلامك على الرف، وتقول: لقد اكتفيت .

الناجح الحقيقي هو من بنى مجده من الطين،

من فشله، من عرقه، من النسيان، من الرفض،

ثم مدّ جسده عبر السنين ليصبح جسرًا يمرّ عليه الأمل إلى الأجيال.

عكس الاهتمام ؟

ليس قِلّته كما قد نظن... بل الإفراط في الوصاية،

الاهتمام الذي يتحوّل إلى محاضرة يومية، إلى نبض مراقب،

هو أشبه بعين كاميرا داخل الروح.

كأنّ الحب حين يفيض على غير علم، يخنق بدل أن يحيي.

لذا يهرب الأبناء من حضنٍ لم يُمنحهم الهواء.

عكس الحكمة ؟

ليس الجهل كما يُقال، بل التحكم.

فالحكيم يعرف أن لا سلطان له على مصير أحد،
يعرف متى يتراجع، متى يصمت،
ويترك الخلق للخالق، والرحلة لركّابها.

عكس الثقة بالنفس ؟
ليست الخجل ولا الانطواء.
بل هو ذاك الصوت الخافت الذي يحاول الصراخ بكل الطرق ليُقنع العالم بأنه قويّ.
الثقة لا تحتاج إلى إثبات...
إنها مِثل العطر، تفوح بهدوء دون حاجة إلى ضجيج.

الغنى ؟
لا يُناقضه الفقر،
بل يناهضه الطمع.
أن تأكل الكثير وجائعك الداخلي لا يشبع،
أن ترى الوفرة ولا تشكر، أن تملك دون أن تُعطي.

عكس الأمل ؟
ليس اليأس،
اليأس صرخة حادة تأتي بعد جهد،
لكن التسويف... هو الخدر البطيء الذي يقتل الأحلام ببطء،

يسحبها إلى غدٍ لا يأتي،
إلى رفوف النوايا الحسنة، حيث تُدفن الإرادة.

الوحدة ؟
لا يُعالجها التواصل، ولا عدد المتابعين.
عكس الوحدة الحقيقي هو العزلة الإبداعية،
عزلتك التي تُنبت فيها نصوصك،
التي تسمع فيها صوت الله داخلك،
تلك التي لا تخيفك، بل تُطهّرك.

الشجاعة ؟
هنا ابتسم علّام، رفع عينه نحو الطلاب وقال مبتسمًا :
عكس الشجاعة ؟ ليس الجبن .... بل الزبدة.

ضحكوا، ثم ضحك معهم، ذلك الضحك الخفيف العميق،
الذي يخرج من جوف الفلسفة ليضع الحياة في قهقهة صغيرة.

ثم أضاف بنبرة أخف:
عكس المحاضرات المملة ؟
ليس الممتعة فحسب،
بل تلك التي تجعلك تفكر، تتفاعل، تطرح السؤال،
فالمعرفة لا تُلقى، بل تُصنع معاً.

ثم تأنّى، وبصوتٍ يشبه خشوع النهايات، قال :
مفهوم الأضداد عند الإنسان هشّ،
لذلك تتعثّر كرة أمبادوقليس وتختل التوازنات.

عكس الكاتب ؟
ليس الأميّ، بل السياسي...
فالكاتب يبحث عن الحقيقة ليقولها،
أما السياسي فيبحث عنها ليخفيها.

وعكس الطب النفسي ؟
ليس الشعوذة،
بل موت الروح وبقاء الجسد على قيد الانتظار.

انتهت المحاضرة.
مرّت الجولة كأنها دعاء،
وفي قاموس علّام، كل لحظة تُعاش بشغف،
كل لقاء مع إنسان جسر نحو الشفاء.
الطب النفسي عنده ليس علمًا فقط، بل صلاة.

هو حياة أخرى... حلمٌ به شفاء، وشفاءٌ به حياة.

****

استيقظت ليلى في عتمة الليل، كأنها خرجت من غيبوبة طويلة، نفضت عنها شيئًا من ثقل الحمى، كمن تستعيد صوتها بعد صمتٍ دام شهورًا. كان في صدرها خفّة غريبة لم تعرف مثلها من قبل، وكأن روحًا جديدة أُودعت فيها، لم تكن تقوى على تسمية هذا الشعور، لكنه كان مزيجًا ناعمًا بين النجاة والتجدّد.

كان حضور سوزان، ابنتها الوحيدة، قد أشعل شيئًا خافتًا في الداخل، نارًا دافئة من نوع خاص لا تلسع ولا تحرق، بل تشبه قبلة أم على جبين طفلٍ مريض. كم اشتاقت ليلى لأن تكون لها وظيفة في حياة أحدهم، أن تحتاجها روح أخرى، وهذا ما منحته لها سوزان بكلمة، بنظرة، بتنهيدة قريبة.

نهضت بتؤدة من سريرها، سحبت الغطاء عنها كما يُسحب ستار من على خشبة مسرح مهجور، وسارت نحو الحمّام في صمتٍ يشبه أنفاس الفجر. كانت الغرفة خالية، سوزان قد غادرت مؤقتًا، وعدت بأن تعود صباحًا.

دخلت الحمّام وأغلقت الباب خلفها، لا بصوتٍ حاد، بل كمن يخشى أن يوقظ شيئًا نائمًا في الجدران. وقفت أمام المرآة، تنظر إلى صورتها كما لو تراها للمرة الأولى.

وفي لحظة لا تشبه أي لحظة، ابتسمت لها صورتها في المرآة.

لكن... لم تكن هي من ابتسمت.

تجمد الزمن في عيني ليلى، وانسحب الدم من أطرافها. ارتجفت كغصنٍ هزّته ريحٌ غير مرئية. شعرت أن أرض الحمّام تهتز، لا لأنها مريضة، بل لأن شيئًا داخليًا قد اختل. حاولت أن تسيطر على ارتباكها، لكن الصورة المنعكسة كانت تبتسم بثقة، بعينين أعمق من عينيها، كأن المرآة صارت بوابة، وصورتها الأخرى امرأة مختلفة، أقوى، أكثر حدةً وجرأةً... امرأة لا تعرفها لكنها تعرفها.

مدّت يدها نحو المرآة، فمدّت الانعكاس يدها أيضًا، لكن ببطء زاحف، كما لو أن المرآة تتنفس، وأن خلفها روحاً أخرى غير قابلة للتصنيف.

● الصورة : على مهلك ليلى.. لا تخافي..

○ ليلى : يا إلهي، هل أنا أحلم أم أنني أهلوس، هذا ذهان، ليس حقيقة.. لستِ حقيقة...

● الصورة : لا هذا ولا ذاك، انظري إلى القلادة حول عنقك..

نظرت ليلى إلى القلادة...

○ ليلى : ما هذه، ليست لي، لا أعرفها...

● الصورة : أعرف، إنها جزء من نيزك كاد يصطدم بالأرض و يحدث كارثة، لكن البشر تداركوا الموضوع وحطموه في آخر لحظة.

○ ليلى : نيزك ؟ ما هذا الكلام ؟ وما علاقتي بالموضوع، كيف وصلت القلادة إليّ ؟

● الصورة : لقد كنت تهلوسين طول الفترة الماضية عن اقتراب النيزك من الأرض، هذا ما حدث بالفعل.. لذا وضعها أحدهم في طريق ابنتك، القلادة من حطام النيزك، ذكرى عن نبوءتك.. وأنا أوحيت لابنتك أن تضعها حول عنقك...

○ ليلى : ومن أنت أساساً ؟

● الصورة : أنا قرينتك.. النسخة المضادة لك..

○ ليلى : المضادة !

● الصورة : طبعا لكل شيء في هذا الكون شيء مضاد له، ارفعي يدك اليمنى..

رفعت ليلى يدها اليمنى فرفعت الصورة يدها اليسرى.

● الصورة : أرأيت عندما يحرك أي إنسان يده اليمنى تحرك صورته في المرآة يدها اليسرى، كل إنسان عندما ينظر في المرآة يرى نسخة مضادة له أو قرينه، لكنك أنت الوحيدة التي أصبحت تملك هبة التواصل مع نسختها.

○ ليلى بخوف : و كيف ذلك ؟

● الصورة : لأن المذنب الذي سقط سحري... الطاقة تفعل المعجزات والله يفعل ما يشاء، إن اختصرتُ الشرح والحديث.. مادة النيزك تحوي على جزيئات صغيرة للغاية تخترق خلايا الجلد عند التماس المزمن معها ثم تندمج مع عصبونات الدماغ وتمكنك من رؤية قرينك الذي هو في داخلك في الأصل كنسخة في المرآة معاكسة لك...

○ ليلى : أي ذهان، هلاوس أو إهلاسات بصرية حسب تسميات الطب النفسي ؟

ابتسمت الصورة في المرآة..

● الصورة : إن أردت تجاوزاً قول ذلك.. ولكنها هلوسة بشيء موجود فعلاً في داخلك.. أي أنها هلوسة غير مرضيّة..

○ ليلى : أليس القرين شخص سيء ؟

● الصورة : أبداً.. القرين مثل الشخص بحد ذاته خليط من الخير والشر..

○ ليلى : وكيف شفيتُ من السرطان ؟

● الصورة : لأن جزيئات النيزك بدورها قامت بتعطيل أنزيم يدعى

تيلوميراز في الخلايا السرطانية التي تجتاح جسدك وبالتالي تسببت هذه الجزيئات بموت الخلايا السرطانية... الخلايا السرطانية المرئية منها وغير المرئية سببت كل الذهان الذي حدث لك سابقاً، سيصل العلم يوماً ما إلى اكتشاف سبب كل الأمراض النفسية، صدقيني :

كل الأمراض النفسية لها أسباب جسدية، لكن كما سمعت إحدى الطبيبات تقول : العلم أصغر من المرض النفسي إلى اليوم.

○ ليلى : تيلوميراز؟

● الصورة : أجل، السبب الذي يجعل خلايا الجسد الطبيعية فانية و قابلة للموت هو قصر طول الصبغيات فيها بعد كل انقسام حتى يصل القصر الى النهاية، فيميتها... أما الخلايا الورمية فقد تغلبت على هذا الأمرعبر أنزيم خاص فيها يدعى تيلوميراز يحافظ على طول الصبغيات ثابتاً رغم الانقسام مما يجعلها خلايا خالدة، الجزيئات الخاصة في النيزك عطلت هذا الأنزيم عندك، مبارك!

○ ليلى : أي أنني شفيت من السرطان تماماً.. وللسرطان علاج هو تعطيل أنزيم تيلوميراز ببساطة، هذه نظرية علمية غريبة !

● الصورة : تماماً.

هزت ليلى رأسها غير مصدقة..

○ ليلى : لا زلت متأكدة أنني أحلم..

● الصورة : اغسلي وجهك بالماء لتتأكدي..

بالفعل غسلت ليلى وجهها عدة مرات، ثم نظرت ثانية إلى المرآة فرأت صورتها تبتسم لها مجدداً :

● الصورة : شاهدي شاماتك الشمسية...

○ ليلى : تعرفين أفكاري أيضاً ! حسناً يبدو أنني بالفعل لا أحلم .. أنت قرينتي إذن و لا خيارات أمامي .. عليّ أن أعتاد على وجودك معي منذ اليوم.

● الصورة : أهلاً بك، أنا معك منذ ولدت، وكل المرات التي تحدثت فيها مع نفسك سواء في ذهنك أو بصوت عالٍ.. كنت في الحقيقة تتحدثين فيها إلي وكنت بدوري أرد عليك وأناقشك.. لكن بحكم أنني غير مرئية كان يخيل إليك أنك تتحدثين لنفسك فحسب، أما ما حدث الآن فهو ببساطة تجسدي كشخص مشابه لك في المرآة لا أكثر...

○ ليلى : أي أن كل الناس تتحدث يومياً إلى قرينها.. مذهل ! نسيت أن أسألك أهم سؤال، ماذا أناديك ؟

● الصورة : ناديني يانا...

○ ليلى مبتسمة : يانا، أي أنني سأناديك يا أنا ! اسم معبر بالفعل !

● الصورة : أجل، ويمكنك الآن العودة الى حياتك الطبيعية والتحقيق مجدداً في الجرائم الغامضة والكتابة.. كتابة القصص البوليسية والألغاز...

كان تعافي ليلى أشبه بخرقٍ صامت لقوانين العلم، كأن الروح قررت فجأة أن تعود من شتاتها دون استئذانٍ من الطبّ ولا إذعانٍ للمألوف.

استفاقت من ذهانها كما تُستفاق المدن بعد الأعاصير: بنفس الوجوه، لكن بروح جديدة، هادئة كأنها وضعت سيف المعاناة جانبًا وقالت: كفى.

الأطباء، جميعهم، بمن فيهم البروفيسور علّام، تقلبوا بين ملفات التحاليل وأرشيف الحالات المشابهة، جاهدوا لتفكيك لغز التحسّن المفاجئ، لكنّ

المعلومة غابت، أو ربّما اختبأت عن عمد، كمن يداري سرًّا عن عيونٍ لا تؤمن إلا بما يُقاس ويُفكك ويُشرّح.

وفي النهاية، لم يبقَ أمامهم إلا الاعتراف بالصمت، ذاك الصمت الذي غالبًا ما يكون أصدق من أيّ شرح.

خرجت ليلى من المستشفى بعد أيام، تمشي على قدميها كأنها ما كانت يومًا هناك.

الدهشة كانت سيد الموقف، عيون الممرّضات، نظرات الزوار، حتى الأجهزة لم تُصدّق أن هذا الجسد الذي اعتاد الانطفاء بات الآن يشعّ دفئًا غير قابل للتفسير.

الجميع دُهِشوا، إلا هاني...

هو فقط، شعر بشيءٍ يشبه التكرار déjà vu ...كأن الحياة تُعيد نفسها على نحوٍ أسطوري، كأنّ الطبيب كووبر قد عبر من خلال ليلى، أو كأن ليلى لم تكن إلا مرآة لكووبر من حياةٍ سابقة.

ثم كانت القلادة.

رآها الجميع تتدلّى برقّتها من عنق ليلى، تتأرجح فوق قلبها كأنها تحفظ نبضًا لا ينتمي تمامًا لهذا الزمن.

تبادلوا النظرات، وانزاحت الأبصار نحو هاني بتوجسٍ مشوب بالأسئلة، لكنه، وعلى غير عادته، لم يعبأ بشيء...

كان في مكانٍ آخر، في صمتٍ كثيف لا يتخلله الكلام.

لم ينظر إليهم، ولم يُجب.

كان فقط... يبتسم كمن رأى المعجزة واحتفظ بسرّها لنفسه.

****

لن نتعلّم الحياة ما دمنا نُسلّم بأن الموت هو النهاية.

فكرة النهاية تُفسد علينا بهجة المسار، تربك خطواتنا، وتقلّم أجنحة أحلامنا.

لكنّ ليلى، بوجهها الذي عبرت فيه آلاف الليالي دون أن يشخُص فيه اليقين، كانت تهمس لنفسها كما تُهمس صلاة مرتجفة :

(الموت ليس نهاية، بل ممرّ خفيّ، ضبابيّ، لحياةٍ أخرى، لا نعرف عنها شيئًا... لكنها هناك... تنتظرنا !)

فقط من أراد أن يتعلّم الحياة حقًّا، يجب أن يمرّ من بوابة الموت كمن يعبر باب الفصل الدراسي الأول.

كانت تلك الفكرة – رغم عتمتها – أشبه بنور بعيد يشعّ في ركنٍ ما من قلبها، يكاد لا يُرى، لكنه موجود.

وقد ساعدتها على الإمساك بطرف الخيط صديقة قديمة، لم تكن تشبه أحدًا، لا في اسمها، ولا في تفاصيلها...

ألنار.

الاسم وحده كان نارًا من نوع خاص. لا تحرق، بل تضيء.

امرأة بملامح هادئة وصوتٍ فيه رجفة العارفين بالألم.

خطف الموت منها زوجها، تاركًا لها طفلين : إيميليا وآدم.

ومنذ ذلك اليوم، صارت ألنار أمًّا وأبًا وجدةً وخالةً وأمانًا.

احتضنت طفليها بذراعيها، بعينها، بليلها، بصبرها، وبما بما تبقّى لها

من جسد وروح.

لكنها، كما كل الأرامل العظيمات، نسيت أن تحتضن نفسها.

نسيت أن تنادي باسمها، أن تعتني بضحكتها، أن تهمس لصورتها في المرآة : **أنتِ موجودة يا ألنار... وأنتِ تستحقين الحنان.**

فكما نسيت ليلى ذاتها في متاهات الحياة ودهاليز الذهان والقلق، نسيت ألنار أن لها قلبًا تعب، وجسدًا وُضع في حرب لم يخترها.

تشبهت الروح بالروح، وامتزج الألم بالأمل.

ليلى لم تكن بحاجة إلى دليل خارجي لتؤمن بالحياة بعد الموت، كانت تحتاج فقط إلى مرآةٍ اسمها ألنار... لترى من خلالها أن من دفن قلبها في الظلال لا يزال ينبض، فقط في مكان آخر.

وهكذا...

حين تلتقي امرأتان سقطتا في الحياة كأوراق شجر في خريفٍ عاصف، ثمّ تعلمان أن الأوراق لا تموت، بل تعود من جديد في ربيعٍ آخر...

عندها فقط، تتعلّمان الحياة.

لا كأحياء ينتظرون موتهم،

بل كناجين يعيدون اكتشاف المعجزة الأولى :

أنك موجود... رغم كل ما مررت به ..

● ألنار: عندما كان زوجي في المستشفى طلب مني أن أطبخ محشي، كانت من أكثر الطبخات التي أتقنها، عدت المنزل وبدأت الطبخ، طبختها يومها بدموعي، كانت مالحة جداً، قال لي زوجي : لستِ من طبخها.. وقلت في نفسي : لست أنا.

خطفه **القصور الكلوي** بسرعة، سرعة غريبة تشبه فترة قدرتنا على التركيز في زمن الافتراض.

ثم بدأت رحلتني في توضيح حياته الجديدة في الجنة لطفليّ، لم يكن الموضوع سهلاً، لكنهما اقتنعا.

لا يقتنع الأطفال إلا بالحقائق، هذه فطرة، الحياة الأخرى حقيقة صدقيني.

صمتت ألنار قليلاً، ثم نظرت في عيني ليلى :

● ألنار: حلمت بك وأنت في المستشفى...

○ ليلى : خير ان شاء الله...

● ألنار: خير، حلمت أنك تنظرين في المرآة، تحدثين نفسك، كلمتك على جوالك المحمول وقلت لك أن نخرج.. قلت سنرى...

ذهلت ليلى.. لقد عاشت حلم صديقتها...

● ألنار: تعلمين نتشارك الاكتئاب يا صديقة الحزن.. الحياة ثقيلة جداً على كتفين، تحتاج أربعة !

○ ليلى : معك حق، قالوا لي في المستشفى، كما أخبرتني يوماً أنني قد أكون مصابة بالاكتئاب ويجب عليّ مراجعة الطبيب النفسي، في السنة السابقة تغير كل شيء فيّ، تغيرت أيضاً نظرتي للحياة.. لولا ابنتي سوزان وإيماني بالله، لتمنيت الموت، الحمد لله الآن كل شيء أفضل.

● ألنار : الحمد لله..

صمتت قليلاً، ثم أضافت:

● أنا أيضاً أحتاجك، ليس فقط سوزان.. أنت أختي هنا.

ألنار أيضًا بلغت الأربعين، السنّ التي لا تُقاس بالسنوات بل بالمرايا.

في أعماق هذا العقد، تبدأ الأسئلة بالتصاعد كأدخنة بخور قديم :

هل عشت حقًّا ؟ أم أن ما مضى كان مشهدًا تجريبيًّا لحياةٍ لم تُعرض قط ؟

أزمة منتصف العمر؟

كتب التنمية تصفها بألف تعريف، وتطبيقات الهواتف تقترح تجاوزها في سبعة أيام ، لكن لا أحد يخبرك بالحقيقة المؤلمة :

أنك حين تصل الأربعين، تكتشف فجأة أنّ أجمل الذكريات لم تُعاش كما يجب،

وأن ما كان مرًّا لم يُحلَّ كما يستحق،

وأن الحكمة التي كنت تظنّها صبرًا، كانت في بعض الأحيان ندمًا مُقنَّعًا يرتدي معطف الوقار.

في منتصف العمر، تُخاطب نفسك كثيرًا :

ياريتني ما فعلت

ليتني قلت

يا ليت الزمان يعود...

لكن هذه العبارات لا تعمّر بيتًا خربًا، ولا تُعيد وجعًا مضى كي تعتذر له، ولا تُحيي فرصة سُرقت بنعومة من أصابعك بينما كنت مشغولًا بكونك عقلانيًّا..

منتصف العمر ليس أزمة، بل بوابة.

بوابة إمّا إلى التصالح أو التيه الأبدي.

تصالحٌ مع الطفل الذي بداخلك، مع المرأة التي أصبحتها، مع الأخطاء التي لا تُمحى، ومع النهايات التي لا تملك أن تغيّرها...

فقط يمكنك أن تُحبّها كما هي، لأنها شكّلتك.

أما ليلى، فهي مثال حيّ أن العودة من الهاوية ممكنة.

فعندما تعود للحياة من جديد، لا تعود كما كنت، بل كما ينبغي أن تكون.

تصير حواسك أكثر يقظة، وصوتك أكثر دفئًا، وأحلامك أكثر واقعية، لأنك لم تعُد تطلب المستحيل، بل تنحني لتزرع الممكن.

الحياة ليست في الماضي، ولا في الغد،

الحياة في **الآن** ،

وفي تلك اللحظة التي تستنشق فيها الهواء بقلبٍ ممتنّ، وتقول لنفسك:

أنا هنا، إذن ما زلت أستطيع البدء من جديد.

****

عادت ليلى بعد غياب قصير إلى عالمها المألوف، محققة استشارية خاصة، تحمل في عينيها وهج الأمل المتجدد ونشوة عودة الحياة إلى رئتيها. استقبلت على الفور قضية جديدة، ليست ككل القضايا، بل لغزٌ فريد؛ سرقة خزنة الإيداعات والأمانات في أحد أعرق البنوك المصرية، تلك القصة التي تجمع بين بساطة الظاهر وتعقيد الخفايا.

القضية كانت من نوع السهل الممتنع ، كأنها لغز تراقصه الرياح بين

الواقع والخيال، تشعر به ليلى كنبض جديد في عروقها، ينبئها بأن هذا التحقيق سيعيدها إلى ذروة شعورها بالحياة، إلى النشوة التي تكتسبها حينما تذوق طعم الحقيقة.

في التقرير، بدا كل شيء معقَّداً وبسيطاً في آن معاً ، و اشتمل التحقيق النقاط التالية :

- باب خزنة البنك يغلق بقفل سري مع مؤقت زمني، وهو لم يمس.
- لم يعثر على فتحة في داخل الخزنة سواء من الأرضية أو الجدران أو السقف.
- قام السارق بخلع قفل واحد فقط، هو القفل الذي يحوي نسخ مفاتيح جميع صناديق الأمانات داخل الخزنة، ثم فتح الصناديق بمفاتيحها، و أعاد الأقفال مكانها كما كانت.
- النقطة الغريبة أو الظريفة في السرقة أن السارق قام بوضع بعض الأموال والمجوهرات في صناديق أشخاص أقل ثراء ... و كان ذلك مدهشاً ومحيراً للشرطة، من هو غريب الأطوار هذا الذي يخاطر بسرقة أمانات بنك من أجل مساعدة الأقل ثراءً وربما حظاً؟
- السارق لم يترك خلفه أي بصمات .

من يكون هذا الغريب ؟ كيف دخل إلى عالم مغلق لا يفتح إلا لمن يحمل المفاتيح، ومن أين استقى تلك الرحمة الغامضة ؟

كانت ليلى تشعر بفضولٍ لا يُقاوم، يرمي بها إلى داخل هذا اللغز، تلك الحكاية التي لا تشبه إلا القليل من قصص السرقة التي مرت بها، هنا، وقفت لتقول لنفسه ا: هذا هو المكان الذي يجب أن أبدأ منه رحلة العودة

في صباح اليوم التالي، وبين طيات النسيم البارد الذي يتسلل عبر أبواب البنك العتيقة، دخلت ليلى مع مساعدها **غالب**، محاطين بأوراق

التفويض الرسمية التي تعطيهما الضوء الأخضر لاختراق أسرار المكان. قابلا المسؤول عن السجلات، ذاك الرجل الذي يحمل عينيه حملاً من الأرقام والأسرار، ومسؤول الخزنة، الرجل الذي لم يرَ الحادث إلا ككابوس مرعب يتحدى المنطق، وتوجها مع المسؤولة عن الخزنة نفسها، تلك التي تراقب الصناديق يومياً كما يراقب العاشق محبوبته، لكن هذه المرة كان كل شيء مختلفاً.

تقدمت ليلى بخطوات واثقة لكنها مفعمة بالحذر، تنظر بعين المحقق الذي يقرأ بين طيات الصمت، وبين كل حركة ووميض في المكان، كل ركن يحكي له قصة، وكل ظل يخفي لغزاً ينتظر أن يبوح به.

وهكذا، بدأت الحكاية الحقيقية في هذه القاعات الصامتة، حيث تختبئ الحقيقة خلف الأقفال، وتنتظر من يجرؤ على كشفها.

● ليلى : كيف يتم التعامل مع المودع هنا آنسة **عليا** ؟

○ عليا : أقوم بفتح الخزنة للمودع بعد التحقق من هويته، ثم أفتح صندوقه معه - في حال كان المودع عميلاً جديداً - لأن كل صندوق يحتاج مفتاحين واحد معي، والمفتاح الآخر مع المودع، ثم أمنح المودع بعض الخصوصية، أغادر، وأعود بعد خمس دقائق وأتأكد من مغادرة المودع، فأعيد المفتاح إلى صندوق المفاتيح في الخزنة وأغلقه ، ثم أغلق الخزنة مجدداً...

● ليلى : و كيف يعمل المؤقت الخاص بباب الخزنة ؟

○عليا : عندما يعمل المؤقت لا شيء يفتح الخزنة حتى الرقم السري لها إلى أن تنتهي مدة المؤقت، نحن نعيّر المؤقت في نهاية الدوام الرسمي حتى لا يفتح الباب حتى بداية الدوام في اليوم التالي.

● ليلى : ومتى اكتشفتم سرقة الخزنة ؟

○ عليا : صباح يوم السبت، أي أن الخزنة سُرقَت مساء الخميس أو يوم الجمعة وهذا ضرب من المستحيل للأسباب التي ذكرتها لك خاصة أن البنك كان مغلقاً بالكامل...

● ليلى : وكأن عصابة من الأشباح مرت عبر جدران البنك و سرقته.

● يانا : لا أشباح في هذا الزمن...

○ عليا : للأسف هذا هو التفسير الوحيد وغير المنطقي، فلا أثر لأي اعتداء عدا قفل صندوق المفاتيح المخلوع.

● ليلى : سنرى، تفضلي...

تسللت أشعة الضوء الخافتة إلى داخل الخزنة، لتكشف عن تفاصيل دقيقة قد يغفل عنها العين العابرة. وقفت ليلى بثبات، تنظر إلى كل زاوية بحرفية صقور تراقب فريستها. كان سقف الخزنة يبدو عادياً للوهلة الأولى، لكنه في الحقيقة سقف مستعار، مصنوع بإتقان يخفي وراءه سرّاً دفيناً. طلبت كرسيًا من الخارج، وصعدت عليه كفراشة تبحث عن زهرتها، ثم ببطء أزاحت جزءاً من السقف المستعار.

تنفست بعمق، ورمت نظرة خاطفة عبر الفتحة التي كشفت عنها في السقف ، ثم رمقت من هنالك مكان الصناديق، كان عبارة عن خزنتين متجاورتين بشكل مثلث قائم الزاوية يفصل بينهما فراغ ضيق في زاوية الغرفة.. عادت أفكارها إلى قرينتها يانا، التي لطالما كانت تعيد ترتيب أفكارها وتوجهها من اللاوعي إلى النور.

هزّت رأسها بدهشة خفية، ثم ابتسمت بهدوء. كانت تتحدث مع قرينتها كما تفعل دوماً، فتأتيها الردود كما لو أن الهواء يحملها من بين الجدران الصامتة.

أنهت فحصها بهدوء، نزلت عن الكرسي، وعينها تلمع بشيء من

الوضوح والثقة التي سبقتها رحلة طويلة من البحث والاستكشاف.

● ليلى : أريد رؤية سجلات المراجعين يوم الخميس السابق للسرقة إن أمكن.

○ عليا : بالطبع، تفضلي...

توجه الجميع إلى الموظف المسؤول عن السجلات..

○ عليا : **سيد**، أريد الاطلاع على سجل يوم الخميس السابق للسرقة.

● سيد : على الفور، هو في **13** الشهر السابق كما أذكر، لنرى ..

قلّب في السجل لحظات ثم توقف عند صفحة محددة..

● سيد : بالضبط كما توقعت يوم الخميس **13** تموز، جميع الأسماء هنا معروفة، تم التحقيق معها وثبتت براءتها عدا اسمين تبين أنهما مزيفان...

○ ليلى : و أحدهما كان أول الحاضرين يوم السبت التالي للسرقة ؟

سيد بدهشة ..

● سيد : بالفعل !!...

○ ليلى : هل تتذكري شكليهما آنسة عليا ؟

● عليا : للأسف لا، لكن نستطيع مراجعة صور الكاميرات الباقية، فاللص استولى على خادم الفيديو الرئيس للخزنة، الذي كان في الخزنة أيضاً...

لقد كانا يضعان قناعين كشكل من أشكال الوقاية من **فيروس زيبرا** المنتشر منذ فترة.. وما أذكره فقط أن أحدهما كان أزرق العينين بشكل واضح مع شامة فوق حاجبه الأيمن والآخر كان أصلعاً بالكامل...

هل تشتبهين بهما سيدة ليلى ؟

○ ليلى : سنرى...

● يانا : نشتبه بهما ؟ إنهما السارقين قطعاً.. لقد اكتشفنا كيف تمت السرقة، تبقى أن نتعرف على مكانهما.. لدي خطة بسيطة بهذا الخصوص.

○ ليلى : أريد منك يا عليا أن تعصري ذاكرتك قليلاً وتخبريني، هل كان أحد هذين الرجلين يحمل حقيبة يوم الخميس السابق للسرقة ؟

● عليا : أجل، في الحقيقة الاثنان كانا يحملان حقيبة...

○ ليلى : تماماً...

● يانا : كما توقعنا، الصورة الآن أصبحت واضحة، لقد دخل السارقان الخزنة يوم الخميس في آخر الدوام الرسمي، قاما بإخفاء حقيبة فوق السقف المستعار بعد أن غادرت عليا الخزنة لتمنحهما الخصوصية.. بعدها اختبئ أحدهما وهو الأصغر بنية غالباً في الفراغ الضيق عند التقاء خزانتي الصناديق ببعضهما في زاوية الغرفة وإن كنت أجهل حتى اللحظة كيف فعلها، فالمسافة صغيرة جداً، لكن هذا هو الاحتمال الوحيد المنطقي لسرقة الخزنة.. خرج الآخر وأخبر عليا أنهما انتهيا، فأغلقت باب الخزانة وشغلت المؤقت حتى صباح السبت ..أغلق البنك أبوابه، غادر الموظفون إلى بيوتهم، هنا خرج الرجل من مخبئه، أنزل الحقيبة من السقف المستعار، كان أمامه يوم ونصف لخلع صندوق المفاتيح، ثم فتح الصناديق كلها.

وضع المال والمجوهرات في صناديق الأقل ثراء، أخذ القليل أيضاً..

ثم أعاد الحقيبة مكانها وأعاد الأقفال إلى مكانها أيضاً، كي لا تنتبه عليا إلى وجود سرقة والرجل مختبئ مكانه، فيكشف أمره.

كان زميله أول الحاضرين في بداية الدوام يوم السبت، فساعده على الخروج، أنزلا الحقيبة، غادر الأول بهدوء ودون ضجة، ثم نادى الآخر على عليا، شكرها، ولحق زميله.

عندما حاول أحد العملاء اللاحقين - وكان من الأثرياء - فتح صندوقه، تبين أنه فارغ، فاكتشفوا حدوث السرقات.

أيقظ سؤال عليا ليلى من (مونولوجها) الداخلي مع يانا :

● عليا : هل ستصل الشرطة إليهما ؟

○ ليلى : إن شاء الله.

شكرت ليلى عليا على تعاونها وغادرت البنك مع غالب.

○ ليلى : هنالك طرف خيط تركه السارق خلفه يمكننا البدء منه.

● غالب : هل ترك دليلا خلفه حقاً ؟

○ ليلى : بالطبع، فلا وجود للجريمة الكاملة ... لقد ظن السارق نفسه روبن هوود بوضع مال ومجوهرات في صناديق الناس الأقل ثراء، لكنه كان يترك في الحقيقة دليلاً خلفه...

● غالب : كيف ؟

○ ليلى : من دراستي بعقلية المجرمين ونفسياتهم، فهذا السارق لا يسرق على خلفية الاجرام المرافق للحاجة، فحسب، بل هناك سبب آخر ، ربما نوع من التحدي وإثبات الذات، أو سبب آخر نجهله...

لذا أتوقع أن يكرر السرقة بذات السيناريو أو بغيره في بنوك أخرى...

علينا مراجعة أسماء العملاء في البنوك الأخرى خلال الفترة القادمة، فغالباً سيستخدمان أسماء مستعارة جديدة بهويات مزورة أخرى، وعلينا تعميم مواصفاتهما على البنوك المصرية خاصة هنا في القاهرة.

● غالب : كما قالوا لي عندما بدأت العمل معك، أنت ذكيّة حضرة المحققة، لقد فسرت طريقة السرقة في دقائق، حللت عقلية، شخصية السارق ووضعت خطة للقبض عليه في فترة قياسية.

○ ليلى مبتسمة : لا تزال هنالك نقطة غامضة عن كيفية اختباء أحد الرجلين في الخزنة إذ لا يوجد سوى ذلك الفراغ الضيق جداً..

● غالب : معك حق، أمر محير للغاية فحتى الأقزام يعجزون عن ملء ذاك الفراغ !!...

في عتمة مكتب التحقيق، حيث تتعانق ظلال الأسئلة مع وهج الحقائق المبهرة، تبسمت ليلى وهي تتأمل ثمار بحثها الطويل بعد شهرين من المراقبة الدقيقة لسجلات البنوك في أزقة القاهرة المكتظة. كل خطوة كانت محسوبة، وكل تفصيل مدقق، حتى جاء اليوم الذي حدث فيه ما توقعت ليلى بالضبط حيث قام شخصان بنفس المواصفات بوضع وديعة في أحد البنوك ...

تمت مراقبتهما بشكل دقيق، وبعد أيام تم القبض عليهما يضعان حقيبة في السقف المستعار.. وتحت الضغط والأدلة اعترفا بكل شيء..
المدهش كان كلامهما عن أنفسهما، قالا إنهما **الأخوان هوود** ، لا يسرقان بدافع الحاجة فهما يعملان في وظائف ذات مردود مادي جيد، بل يسرقان بدافع مساعدة المحتاجين ...

لكن في المحكمة، لم يكن لحكايات الخير والنية الطيبة وزن، فصدر الحكم على ثروت وعزت بالسجن لمدة سبع سنوات .

مثّل السارقان السرقة، وكانت نفس الطريقة التي استنتجتها ليلى، التي ابتسمت بدهشة، عندما عرفت كيف استطاع أحدهما بالفعل الاختباء في ذلك المكان الضيق للغاية... السبب مرضي، للأمراض جوانب خفية لا يعرفها محققو الشرطة ...

كان السارقان يمشيان ويتحدثان بثقة وفرح، حتى لتحس أنهما اكتشفا كوكباً جديداً، ولم يسرقا خزنة الأمانات في بنك ...

أشارت ليلى باحتياج الأخوين لتقييم نفسي عميق، ليكشف الغموض المظلم وراء اختياراتهما، فتكون العدالة أكثر حكمة ورحمة. لكن صوتها لم يجد آذانًا صاغية في عالم الطب النفسي الذي لم يزل أسير خطواته الأولى في بلاد الشرق .. فلم يصغ أحد لطلب ليلى و دخل الأخوان هوود السجن ببساطة، و(بشجاعة)، دون نقض ومن أوسع الأبواب..

بقيت قصة الأخوين هوود تثير الأسئلة عن حدود العقل والقلب، عن العدالة التي تحكم بالقانون، والرحمة التي تحكم بالفهم. و بقيت ليلى، في زوايا مكتبها، تنظر بعين المحققة، وعين الإنسان الذي لا يهدأ بحثًا عن الحقيقة وراء كل ظاهرة.

****

في ذلك المساء أخذت ليلى أدويتها، ثم دخلت الحمّام..

وقفت أمام المرآة، فابتسمت صورتها فيها...

○ ليلى : لقد حللت أول قضية لنا بعد شفائي ولقائك..

● يانا : مبارك لك ...

○ ليلى : مبارك لنا.. نحن واحد.. لا تنسي أننا كنا نفكر سوياً بالقضية..

● يانا : و ما هي الأصداء ؟

○ ليلى : رائعة لقد عدت بقوة الى مجال عملي، وبانتظارنا المزيد من القضايا الغامضة لنحلها ولنكتب عنها أيضاً...

● يانا : ليس بعد اليوم يا ليلى، يجب أن أرحل...

○ ليلى بدهشة : لماذا ؟

● يانا : لأن مرونتك النفسية أفضل قرين لك، لن تحتاجيني بعد اليوم

○ ليلى : لكني تعودت عليك...

● يانا : وأنت من القوة، لتعتادي الحياة من دوني... الطمأنينة هي الشعور الإنساني الأسمى.. القرين الأول للحكماء والأخير للسذج...

○ ليلى : كيف ؟

● يانا : يعرف الحكيم أن الغنى، الجاه، الأولاد، العمل والموهبة تبدأ وتنتهي مع غاية قصوى وهي الطمأنينة، بينما يحاول الساذج قدر الإمكان الحصول على المال، السلطة، المناصب، الذرية ويبيع موهبته مع طمأنينته في سبيل ما سبق.
كل يحصل على مبتغاه، ثم يقضي الساذج حياته في محاولات خائبة لإعادة عمر ضائع...

ابتسمت ليلى، فاختفت يانا.

○ ليلى : صحيح، يا لصفاء ذهني !

أيقظها من طوفانها في عالم الذهان صوت المحمول :

- ليلى.. تخرجين وسوزان معنا اليوم ؟

- إلى أين ؟

- نشرب قهوة ونتمشى قليلاً..

- طبعاً.. لنتنفس قليلاً...

ليس على هذه الأرض ما يستحق الندم... ولا القلق.

نحن زوّارُ رمادٍ يمشي على أطراف الوقت، نُقيم مؤقتًا في جسدٍ مستعار ، ونحمل فوق أكتافنا سَاعة رملية لا نعرف كم تبقّى فيها من الحُبّ، من الغفران، من اللقاء... من الحياة.

فهل يُعقل أن نضيّع الدقائق المتبقية في اجترار ما لن يتغيّر؟

الطمأنينة لا تُهدى... بل تُكتشف.

هي تلك اللحظة التي يسكن فيها ضجيجك، وتُصغي لصوتك الداخلي كما لو أنه صلاة، لا تحتاج معها إلى تفسير.

حين تصلها، لا تعود بحاجة إلى أحد... ولا حتى إلى نفسك القديمة.

حين تسكنك الطمأنينة، يصبح الحب سيّد المكان،

فتنهار جدران الخوف، وتغادر يانا ـ تلك التي كانت تسكن زوايا الذهن وتغذيه بالوهم - في صمتٍ كامل، كأنها لم تكن.

تستقر النواقل الكيميائية كأنها فراشات تعبَت من الارتجاف، وتعود الحياة إلى نبضها المتزن.

وفي عالم يسوده الحب، لا مكان للكراهية...

تتفكك كما تتشظى كرة أمبادوقليس تحت نور الحقيقة،

تخسر شكلها وتأثيرها، ويعود الكون إلى حالته البدئية :

نورٌ يتسلل من قلبٍ خالٍ... ممتلئٍ بالله.

في الطمأنينة، لا تعود النهاية شيئًا يُرهبك.
بل تصبح وعدًا هادئًا بلقاءٍ أكبر، وحياةٍ أخرى لا يشوبها ضياع.

کارها

يقولون :

الخيط الذي يُقطع ثم يُوصل، يُصبح مليئًا بالعُقَد، لا يصلح بعدها لشيء...

لكن الحقيقة، أكثر شاعريةً من ذلك. الحقيقة أن هذا الخيط، بالذات، هو ما يصنع القصيدة. هو ما يُغزل به نسيج الأرواح المتعبة، ويُطرّز على أطرافه تاريخُ الإنسان... بكل هشاشته.

الخيط المقطوع حين نعيد وصله، لا يعود كما كان، أجل...

بل يصير أصدق. يصبح متفردًا، لا يشبه سواه.

كل عقدة عليه تشبه ندبة في القلب، ووردة في الطريق.

كل عقدة حكاية.

وإن أضفنا لكل عقدة حبة لؤلؤٍ من حكمةٍ تعلمناها، أو ألمٍ صبرنا عليه، صار الخيط سُبحَة حياةٍ لا تقدّر بثمن.

العلاقات القابلة للوصل، تلك التي تُشدّ في الأزمات ولا تُقطع، هي الأقوى، الأجمل، الأصدق.

ليست المثالية ما يجعل الروابط خالدة، بل القابلية للترميم، للرأفة، للإمساك بالخيط رغم العُقَد.

هذه العلاقات، كالنقوش على خزفٍ مكسور رُمم بالذهب، لا تنكسر، بل تُزهر من الشقوق.

أما الأخطاء، تلك التي نعبرها كما يعبر النهر بين الصخور، فليست لعنة، بل معلّمٌ صارم.

هي التي تصنعنا، تُشكّلنا كالفخار بين يدي العالِم.

تُعقّد حيواتنا؟ نعم. لكن التعقيد لا يعني القبح، بل العمق.

من رحم هذه الأخطاء، تنبت معجزة الكينونة.

وما نبحث عنه، لا يبحث عنا كما نظن.

بل كلما ارتقينا عن التعلق، وتطهّرنا من الحاجة، كلما لاحقنا المفقود، وعاد إلينا ما ظنناه فُقد إلى الأبد.

الاستغناء... سرُّ الوجود.

حين تتعقد خيوط الحياة حولك، لا تقطعها...

انظر جيدًا، فقد بدأت تتحول إلى سُبحَة لؤلؤ،

وفي كل لؤلؤة... دعاء، تجربة، أمل، أو حلم.

وهكذا، يصبح الخيط المعقود، أبهى من خيطٍ مسترسل لا يحكي شيئًا.

****

دخل ثروت وعزت السجن كما يدخل المذنبون في الروايات الكبرى، لا كأشرار تقليديين، بل كأبطال تراجيكوميديين اختلطت في وجوههم ابتسامات الشجاعة بملامح الخيبة. وُضع كلّ منهما في زنزانة منفصلة، كأن النظام أراد أن يعزل حتى ظلالهما عن بعضها، وكأن الأخوّة ذاتها تهمة تستحق التفريق.

منذ اللحظات الأولى، بدأ عزت يتيقّن أن العالم خلف القضبان لا يشبه العالم الذي تخيّله في لحظة النشوة المثالية عندما وضع المجوهرات في

صناديق الغرباء. هنا، لا أحد يتحدّث عن الأخلاق، ولا عن فلسفة إعادة التوازن. هنا، يُقاس الإنسان بعدد المرات التي تجرّع فيها الإهانة بصمت.

كان الهواء ثقيلاً، لا يحمل الأوكسجين فقط، بل الذكريات المبعثرة لكل من مرّ من هناك، والصرخات المكبوتة في الحناجر، والنداءات التي لم تجد من يسمعها. سمع عزت الجدران تئنّ، وتسلل إلى نفسه شعور غامض بأن الظلام ليس في المكان بل في انطفاء ما كان يضيء في داخله من وضوح. الجدران كانت أكثر قسوة من الأحكام، لأنها لا تسمح للنسيان أن يفعل فعله، بل تكرّر عليه المشهد نفسه، المشهد الذي تخيّل فيه أن العدالة يمكن تهريبها خلسة داخل خزنة مصرفية.

أما ثروت، فكان يمشي في الزنزانة الأخرى كمن يقيس فراغًا جديدًا بأقدامٍ منهكة، لا ليمرّ الوقت، بل ليتذكّر لمَ فعل كل ذلك. لم تكن الندامة حاضرة، بل ما يشبه دهشة الحالم الذي استفاق فجأة في واقع لا يشبه حلمه، ولا يشبه كوابيسه. لم تكن الزنزانة صغيرة، لكن الحلم هو من صار ضيقًا. كل حكاية رواها لنفسه عن بطولة الغريب النبيل تحولت إلى ملامح خشنة لسجّان لا يفقه من القصص سوى أوامر الإغلاق و العدّ الصباحي.

ما لم يدركه القضاة، هو أن السجن الحقيقي لم يكن الجدران، بل في نظرات الناس. في اختزال التجربة إلى تهمة، والنية إلى جريمة، والتناقض إلى خلل. اختُزِلت مغامرتهما في سطرين على الورق، فيما كانت في روحيهما رواية من ألف صفحة، كتبتها المثالية حين تلبّست بهما لحظة، ثم تركتهما للواقع يفعل بهما ما يشاء.

لقد دخلا السجن وفي قلبيهما رغبة ساذجة في تحسين العالم... وها هما الآن، يكتشفان أن العالم لا يُحسَّن، بل يُفهم... ثم يُترَك، كما هو.

لم يجد عزت ملاذا من واقعه المرير اليائس الراهن و وحدته القاتلة سوى تبادل الأفكار و الكلمات مع زميله في الزنزانة عبد المنتقم :

● عزت : مرحبا أخي، أدعى عزت..

○ عبد المنتقم : أهلاً بك أنا عبد..

● عزت : ما تهمتك ؟

○ عبد : أنا سجين مؤبد بتهمة القتل رغم أنني بريء، فقد كنت في موقع الدفاع عن النفس .. أنا خريج تربية وعلم نفس، كيف أقتل ؟ أنت ماذا تعمل وما تهمتك ؟

● عزت : أنا خريج كلية الكيمياء، تهمتي سرقة بنوك، أنا مظلوم جزئياً إن صح التعبير، إذ أنني لا أفعل ذلك لمكسب شخصي بل لمساعدة الفقراء فقط.. مثل روبن هوود، لكنني سجنت سبع سنوات.. أنا وأخي ثروت ..

ضحك عبد المنتقم..

○ عبد بسخرية : أنت روبن هوود حقيقي !

● عزت بفخر وزهو : شكراً يا رفيق، لماذا معاملة السجناء قاسية بهذا الشكل ؟

○ عبد : بسبب مدير السجن **حسان،** هو رجل قاسٍ للغاية، يعتبر السجناء أشخاصاً سيئين تماماً كشياطين لا يستحقون الحياة أو المعاملة الحسنة حتى داخل السجن، ويقول إن له الحق في عقابهم بنفسه كون السجن لا يمثل عقاب كاف بنظره.. لذلك أعطى السجانين تعليمات بمعاملة السجناء بقسوة وبطش.

● عزت : هذا وحشي للغاية !

○ عبد : هو كذلك، حتى أن أحد السجناء ويدعى **زاهي** كان مسجوناً بتهمة سرقة بسيطة، أراد إطعام عياله في هذا الزمن الأعوج، شاب بسيط وحتى ساذج، تعلم يذكرني بك... كان جميع المساجين يحبونه ويتعاطفون معه، لكنه توفي إثر تعرضه للضرب من قبل سجانه الجديد الذي كان يجهل أنه وبالإضافة إلى الاحتياجات الخاصة، بسبب ذكائه المحدود، كان مصاباً بمرض **الناعور** الذي يجعل النزف لا يتوقف بسرعة... هو مرض قاتل في العادة، لكن زاهي كان مصاب بشكل خفيف منه، حيث تعرض لنزوف شديدة وتوفي ... و للأسف القصة لم تغير من نظام السجن أبداً، حيث ادّعى السجّان أن زاهي حاول الاعتداء عليه، فضربه إثر ذلك، رغم أننا جميعاً هنا نعرف أنه كاذب لأن زاهي بسبب مرضه يتجنب الدخول في أي عراك لأن النزف يهدد حياته.

●عزت: إن حسان والسجانين هم المجرمون الحقيقيون، ويجب زجهم في السجن جميعاً .

لم يكن عزت لصاً بالمعنى التقليدي، ولم تكن يداه تعرفان القسوة، بل كان أقرب إلى طفل حائر أضاع يده في زحام الحياة. خذلته الدنيا، وخانته فطرته الساذجة، تلك الفطرة التي لم تعِقها الجينات، بل صيّرتها هشاشته قوةً غريبة لا تفهمها العقول المتكلّسة.

في قلب عزت طيبة منقرضة، وفي عقله خريطة كيميائية لا تشبه خرائط الأذكياء النمطيين. لم يكن متخلفاً، بل مختلفاً. لم يكن عبقرياً، بل حاد الحواف، يتقاطع فيه البرق بالحلم، وتتماوج فيه التجربة بالشغف. حياته سلسلة عقد، من تلك التي لا يفسرها سوى من عاشها؛ عقدة طفولة غير مفهومة، وعقدة أخٍ يكبره ظلّاً ويتبعه نوراً، وعقدة مجتمع لا يرى المختلف إلا خللاً .. أجل، كان عزت من ذوي الاحتياجات الخاصة، ومن يظن أن الإعاقة التطورية **Developmental Disability** خلل التطور واحد ومتشابه عند كل المرضى مخطئ، هناك طيف كبير

لمن اعتاد الناس عن جهل تسميتهم بالمعاقين، وصحت تسميتهم بالقادرين بشكل مختلف :

They are not disabled ;

they are differently abled...

دخل السجن وبه بعض الأمل، لكن السجون لا ترحم الأرواح الرقيقة. كان كل يوم فيه جلداً غير معلن، وكل جدار يضيق، وكل باب يصفع حتى بلا أن يُغلق. كان عبد المنتقم في زنزانته كغيمة سامة تسحب الأمل من القلب، و تملأ الفراغ بالضجيج. ومع الأيام صار صراخ عزت مزمار جنون يُضرب عليه، إلى أن عُزل في زنزانة منفردة، لا تختلف كثيراً عن حفرة تُطمر فيها الأحلام.

لكن عزت، الذي عاش نصف حياته في الظلال، رأى في النافذة العالية ضوءاً غير مرئي. نظر إلى حديدها، ولم ير قيداً، بل احتمالية. رأى في الملح البسيط معجزة ممكنة، لا كسلاح، بل كحيلة علم. كان يعرف ما لا يعرفه جلّادوه : أن الصدأ يحتاج فقط إلى الوقت والصبر، ككل انتقام ناعم.

عزت خريج كلية الكيمياء، يعرف حقيقة علمية أن الماء المالح يسبب الصدأ السريع للحديد، وإذا ما غسل الإطار الحديدي للنافذة الصغيرة يومياً بالماء المالح ستصدأ البراغي الصغيرة التي تثبتها ويصبح من السهل خلعها...

طلب عزت من السجان القليل من الملح مع طعامه اليومي، تحجج بكونه يعاني من هبوط ضغط دائم وفي حاجة للملح، قال له: سأتوقف عن الصراخ و الصخب إن أعطيتني ملحاً، أنا شخص مريض...

بالفعل من أجل راحة باله وتسهيل عمله أصبح السجان يمده بالقليل من

الملح مع كل وجبة، في النهاية هو ملح، ما الذي سيفعله عزت به ؟
الملح لا يُستَخدمُ سكيناً...

على مدار أشهر كان عزت يذيب الملح في كوب المياه البلاستيكي، ثم يغسل البراغي بالماء المالح، بالفعل بعد انقضاء المدة، أصبحت البراغي صدئة للغاية وفي ليل أحد الأيام و بينما الجميع نيام و السكون يخيم على السجن ... سحب الاطار الحديدي للنافذة الصغيرة بقوة، فخلعه...

توقف قليلاً يصغي إن كان أحد ما قد انتبه لذلك، لكن السكون استمر .. وهنا جاء التحدي الأكبر هل يمكنه المرور من هذه النافذة الضيقة؟

هذا بسيط على من بقي في فراغ ضيق، في الخزنة، أليس كذلك؟

عزت ضئيل البنية، قصير القامة، القادر بشكل مختلف، مصاب بأحد أنواع **متلازمة اهلر دانلوس، متلازمة الرجل المطاطي**.

في هذا المرض تصبح مفاصل المريض مرنة للغاية حتى أنه يمكنه خلعها وإعادتها بسهولة إضافة الى الجلد المرن للغاية.

هذه الحالة هي التي ساعدت عزت في سرقة خزنة البنك عندما اختبأ في الفراغ الضيق بين الخزانتين في زاوية الخزنة.

حاول عزت إخراج رأسه، كانت هذه هي المهمة الأصعب .. لكن رأسه خرج بصعوبة في النهاية، فمد ذراعه اليمنى و أخرجها، ثم ذراعه اليسرى، وبعدها جذعه، ثم قدميه..

كانت زنزانته في الدور الرابع والأخير للسجن فتشبث بالإفريز المجاور وصعد الى السطح، اتجه الى الناحية الأخرى من السجن التي تطل على الشارع العام ونزل الافريز بهدوء حتى وصل إلى الأرض .. فركض، لا خوفًا، بل شوقًا. الهواء كان حلواً، كأن للحرية طعماً يُشمّ. ركض كما لم يركض طفل إلى أرجوحته من قبل.

خلفه كان ثروت في ظلمة الزنزانة الأخرى، ظله الحقيقي، الأخ الذي خطط أكثر مما عاش. سبع سنوات عقوبة ليست بالهينة، لكن ثروت يملك عُدة الناجين: الخيال، والكتب، وانتظار المُخلِّص.

أما عزت، ففي قلبه سكن روبن هوود، لا كمثال بطولي، بل كإجابة. بات يفكر، لا في الهروب، بل في العدل. من الخارج، سيعيد اختراع قصته. من الهامش، سيكتب على جدران العالم ما لم يقرأه أحد.

كان وحده، نعم، لكنه لم يكن ضائعاً.

كان حرًّا، أخيراً، وأجمل ما في الحرية أنها لا تفسَّر، بل تُعاش.

****

في فجرٍ خافتٍ، حين كان الضوء ما يزال في طور التكوين، وعصافير المدينة لم تقرر بعدُ إن كانت ستغني، دوّى الصراخ في أروقة السجن كالريح التي تخترق الجدران الرطبة. عزت، الرجل المستحيل، غادر زنزانته التي لا مفر منها. نافذته الصغيرة، التي طالما سخر منها الحرس ككوة للتهوية لا للهرب، كانت الآن معلَّقة كفم ذاهلٍ، بلا إطار، بلا براغٍ تشهد على خيانتها للصّدأ والملح.

عمّ الهرج، واستُدعي حسان، مدير السجن، من نومه كما يُستدعى الغرور حين يُهان. كان الرجل قد بنى لنفسه حصنًا من السطوة، درّبه على الكِبر حتى غدا صوته يُخرس الأبواب، ونظراته تسحق الأعناق المتعبة. ارتدى ملابسه على عجل، رمى بنفسه داخل السيارة، كأن الزمن ضده، كأن عزت سرق منه شيئًا أعمق من الهروب: الهيبة.

لكن القدر كان قد أعد له درسًا لا يُمحى. على أحد المفارق، في لحظة خاطفة، قفزت فتاة أمام سيارته، كأنها خرجت من رحم اللاوعي، أراد تفاديها، لكنه اصطدم بسيارة أخرى، وارتطم رأسه بالمقود بقوة تشبه صفع الحياة للأرواح المتجبرة. غاب عن الوعي... وعاد في جسدٍ جديد.

جسدٌ لم يعد له من الجسد إلا قشرته. شللٌ كامل، لا حراك، لا صوت، لا صرخة. عضلاته خذلته، وبقي له فقط طرفٌ في عينيه يتحرك صعودًا وهبوطًا... وحيدًا، مشلولًا، متيقظًا، محبوسًا في ذاته كما لم يُحبس أحد من قبل.

شُخِّصت حالته **بمتلازمة المنحبس Locked-in syndrome** ، يحدث في هذه المتلازمة شلل جميع العضلات الارادية في الجسم باستثناء عضلات العينين المسؤولة عن الحركة العمودية فقط للعينين..

في الحقيقة هذه المتلازمة من أسوأ ما يمكن أن يمر به مريض على الاطلاق إذ يبقى الوعي والفهم محفوظاً فيها لكن مع عجز كامل عن أي شيء آخر...

لكن لم يكن حسان بحسن حظ المصاب الشهير بهذه المتلازمة :

الصحفي الأربعيني **جون دومينيك بوبي** والذي استيقظ بعد إصابته بجلطة دماغية، ليجد نفسه مصاباً بذات متلازمة المنحبس، في حالة شلل رباعي وشلل شامل لكل عضلاته الإرادية عدا عضلات العين اليسرى.

كان للصحفي جون زوجة بجيش كامل، جلست إلى جانبه في المستشفى وساعدته على كتابة رواية، برفات عينه اليسرى، عشرة أشهر وآلاف

رفات العين، فكانت الرواية الرائعة :

(جرس الغوص والفراشة)

مات جون دومينيك بوبي بعد ثلاث سنوات من تقليب زوجته المستمر لجسده، كي لا تأكله التقرحات.

مات بعد نجاح روايته المكتوبة برمش العين، فكلام الإرادة كما كلام القلوب لا يموت.

على العكس من قصة جون، فالسيء في قصة حسان أنه وحيد والأسوأ أنه وحيد باختياره، رفات عينيه اليوم تذهب بلا ترجمة!

كان يرى، يسمع، يفهم... لكنه لا يُستشار. الحياة تمضي من حوله، كموكب يتجاهل تمثالًا خاشعًا لا أحد يعرف إن كان حيًّا أم منحوتًا. ببطء، ودون ضجيج، بدأت جروحه تغور. التقرحات تمددت في جسده كحبرٍ أسود على صفحة بيضاء. حتى المرض، لم يعد لديه من يحنو عليه فيه، فلا أخ له، ولا ابن، ولا يد تلامس جبينه بلطف.

ولأن للقدر حبكات أعمق من كل دراما الإنسان، جاء موته على هيئة **صدمة إنتانية**، صامتة، كثيفة، لا حاجة فيها لمسدس، ولا محكمة، ولا شهود. مات وحيدًا، تمامًا كما عاش، إلا أنّ هذه المرة لم تكن وحدته اختيارًا... بل عقوبة.

أما عزت، في مكانٍ ما من المدينة، ربما في زقاق لا يعرفه إلا الليل، كان يشعر بشيءٍ ما يتوازن. لا فرح، لا شفقة، فقط إحساس خافت بالعدالة، كأن الكون صحح نفسه. حسان، الذي وزّع القسوة كمن يوزع الأوامر، تذوّق من الكأس ذاتها، تلك التي تجرّعها الأبرياء مثله.

في ظلال السجون، حيث تُكبّل الأجساد خلف قضبان صمت ثقيل، يختزل الإنسان في لحظة سقوطه وتجرده من حريته، لا يُحكم فقط على أفعاله،

بل يُحكم على كيانه، على روحه التي تُحتجز مع الجسد. ورغم أن السجن يُعدُّ مكان الجزاء، فهو أيضاً مرآة قاسية لحالة المجتمع نفسه، الذي غالبًا ما يخلط بين العقاب والقتل البطيء للإنسان.

إنّ حق السجين لا يقتصر على مجرد تحمّل تبعات أفعاله، بل يمتد إلى أن يُعامل بإنسانية تعيد إليه بعضًا من كرامته المسلوبة، وأن يُمنح فرصة استعادة ذاته التي تكاد تذوب في مرارة الندم، والظلم، والعزلة. فالسجن الذي يهين الجسد ليكسر الروح، يزرع في الإنسان وحشاً داخليًا أكثر شراسة من ذاك الذي أُدخِل إليه من أجله.

المجتمع الذي لا يرى في السجين إنسانًا يستحق التعاطف والرحمة، بل مجرد رقم يُلقى في زنزانة، هو مجتمع يحكم على نفسه بالفشل الذريع. إذ لا تثمر العدالة حقًا إلا حين تُلامس الرحمة وجدان الإنسان، حين تُعيد بناء الإنسان لا تدميره، حين تزرع في داخله بذور التوبة والخير، لا الغضب والانتقام.

ينبغي على القائمين على السجون أن ينهضوا بدورٍ أعمق من الحراسة، أن يكونوا مهندسي النور في ظلمة اليأس، أن يبنوا جسرًا بين الخطأ والإنسانية، بين الجريمة والإصلاح، حتى لا تتحول الزنزانة إلى حاضنة لكره الذات والآخر، بل إلى معملٍ لصناعة النفس الجديدة، النفس التي تتعلم الحب والتسامح رغم كل الأوجاع.

هنا، في هذا التوازن الدقيق، تتماسك كرة أمبادوقليس التي تمثل المجتمع، لا حين يُذبح المختلف أو المُخطئ، بل حين يُحتضن في اختلافه وعيوبه، حين يُفتح قلبه على الأمل، ويتحول الندم إلى نور ينبعث من رحم الألم.

في النهاية، السجن ليس نهاية الطريق، بل هو بداية قاسية، قد تكون النهاية الحقيقية إن استسلم الإنسان لمظلمته، أو بداية للولادة من جديد، حين يختار المجتمع أن يرى فيه إنسانًا، لا مجرد مُدان، وحين يصبح الحب طريق الخلاص لا مجرد كلمة تُقال.

حلاوة الروح

- من قال إن الحضارة البشرية بدأت مع العجلة والكتابة والطين ؟
من قرر أن العمر الزمني للإنسان على هذه الأرض لا يتجاوز ما تحكيه كتب التاريخ ونقوش المعابد؟
إنها قراءة من صفحة واحدة في كتاب لا نهائي، بينما الحقيقة أكثر تعقيداً، أكثر سحراً، أكثر اختباءً تحت طبقات من النسيان والغطرسة.

ربما كان الإنسان في زمن سحيق، قد بلغ من العلم مبلغًا جعل الآلات تفكر، والمادة تنصاع، والزمن يتقوّس بين يديه.
ربما صنع عوالم رقمية متداخلة، وجعل من الذكاء الاصطناعي كائناً له مشاعر، وضمير، وأحلام.
ربما، في لحظةٍ ما، عرف كيف يقرأ أفكار الزهور، ويحوّل الضوء إلى موسيقى.

كان ذلك زمنًا بلغت فيه الحضارة ذروتها.. لكنها ذروة تشبه الحافة.
فالقِمم لا تحتمل الغرور، والنِعم لا تطيق الكِبر.
وحين يغدو الإنسان إلهاً في وهمه، تأتي الأرض لتُذكره بمن هو فعلاً:
كائن هشّ، يمشي على تراب، من تراب، وإلى تراب.

انشقت الأرض، لا كغضب فقط، بل كحنين لبدء جديد.
ابتلعت مدناً، علومًا، أبراجًا كانت تلامس عنان السماء، واختفت آثارهم كما تُسحب الذكرى من ذاكرة شيخ فقد الحنين.
ثم بدأ كل شيء من جديد... تفاحة أخرى، درس آخر، جيل آخر يسير على رماد حضارة سابقة دون أن يدري.

هكذا هي دورة الإنسان في خلافته على الأرض:
نُمنَح الفرصة فنرتفع، نغترّ فنسقط، نُنسى فنُولد من جديد.
كل مرة بلغة أخرى، بأدوات أخرى، بروحٍ جديدة تنتظر من يحترمها لتكتمل.

الله، الذي وضعنا خلفاء، لم يكن يومًا غافلًا عمّا نصنع.

يمهلنا بحب، لا لنتمادى، بل لنتأمل.
يعطينا الوقت، لا لنتسلّى، بل لنفهم.

وبين كل دورة ودورة، تنبت أرواحٌ تطرح الأسئلة الكبيرة،
وتلوّح للسماء بشوق العارف،
العارف أن الحضارة الحقيقية لا تُبنى فقط بالحجر والمعادلات، بل بخشوع القلب، وسلام العقل، واتزان النفس...

رفعت تالة يدها:

○ تالة بتحدي : يعني دكتورة غاردينيا الأبيض تعتقد أن الأهرامات مثلاً بنيت قبل الفراعنة بملايين السنين، ثم جاء الفراعنة، فسكنوها وكانت من عجائب الدنيا عندهم أيضاً، لأنهم لم يعرفوا الذكاء الاصطناعي.

● غاردينيا الأبيض : احتمال كبير، بناها قدماء المصريين في عصر كان التقدم فيه أكثر مما هو عليه الآن، كان الذكاء الاصطناعي يفرض جبروته على البشر، فتذوي الإنسانية، بينما يسير العلم بسرعة الضوء، ما بدأ يحدث اليوم تدريجياً...
كانت مصر في ذاك الوقت الأولى في العالم، أول البلاد تقدماً علماً وحضارة...

ارتفعت همسات الحضور بين مخالف وموافق، وعقّب سعد :

○ سعد : فكرة غريبة، لكن مميزة، في الحقيقة قد تفسر كثيراً مما لا نعرفه اليوم... هل كانت هناك قيامة ؟ وهل وعد الله ووفى في البعيد أيضا ً؟

● غاردينيا الأبيض : هذا ما لا أستطيع تخيله، ما أؤمن به أن الله عادل، وأنه أورثنا الأرض لتعميرها، فإن بدأت قوى الخير بالبكاء، وبدأت قوى الظلم بالانتصار، تدّخل الله سبحانه بطرق لا تعد ولا تحصى...
الطريقة الأسمى لدعم الخيرين، فيستمروا في دعم هذا العالم، و

يحافظوا على الأخلاق قبل العلم، هي دعم الطب النفسي.
قلتُ دوماً:
- يصيب المرض النفسي الأنقياء، الذين لا يتحملون الوجه البشع للحياة بشكل أو بآخر.
الجمل السائدة الساذجة: مثل (انسَ الموضوع) ، (اكبسْ زر الإرادة) ، (انشغلْ بأشياء أهم) ، (اعملْ كثيراً) : جمل جاهلة بالطب النفسي، بل أميّة به، غير مدروسة ولا إنسانية في كثير من الحالات، لا تغيّر من الإنذار في شيء.
والنقطة الأخرى الهامة في محاضرتنا اليوم هي أنه لا يصلح الطبيب النفسي لمعالجة أي مريض ما لم يكن عنده الوعي الذاتي، هذا الأخير نحصل عليه عن طريق التأمل بطرقه الكثيرة والعلاج النفسي.

انتهت محاضرة الطبيبة النفسيّة غاردينيا الأبيض كما تنتهي نغمة على وتر غير متوقع، تترك الأذن متعطّشة لامتدادها، وتترك العقل يتقافز خلف فكرة لم تُستكمل.

في ذاك الصباحِ النقيّ كالصفحة الأولى من دفتر، ألقت محاضرتها حول الواقع المُتخيَّل ، حيث لا خطوط فاصلة بين الهلوسة والحدس، ولا أسوار بين الطيف والحقيقة، بل فقط أبواب بينهما من الضوء.

كانت غاردينيا تَقول:
- المرض النفسي ليس عطبًا.. بل إشارة. العقل لا يتكلم بالكلمات، بل بالرموز. إن سمعتم مريضًا يقول إنه يرى النور في الظلام، فاسألوه: ما الذي تحجبه العتمة؟

بهذا الأسلوب الخلّاب، تركت القاعة وهي تنثر أسئلة لا أجوبة.
خرج الطلاب مزيجًا من الدهشة والتفكير، وبين مَن فغر فاهه إعجابًا، ومن عقد حاجبيه بحثًا عن منطق، كانت المحاضرة قد زرعت بذورها.

في الممرات، وعلى الدرج الحجري للمبنى القديم، تسارَرت الأحاديث: عن الصوت الهادئ الواثق للدكتورة، عن مثال الفراشة المكتئبة الذي روته بعينين تضحكان، وعن المريضة الجديدة التي بدأت تتابع حالتها معها.

قال أحدهم إنها دخلت العيادة وهي تلبس فستانًا أسود مطرّزًا بخيوط ذهبية ، كأنها خارجة من ليلة فلكية لا من حيّ فقير.
وقال آخر إن عيناها كانتا تتّسعان عندما تتكلم، كما لو كانت تنقل رسالة من مكان أبعد من الأرض.
قيل إنها لا تُشخّص ضمن أي معيار نفسي معروف.
كل اختبار يُجرى عليها ينتهي بـ : غير محدد.

لكن ما لم يعرفه الطلاب بعد، أن لتلك المريضة حكاية...
حكاية لا تشبه الحكايا، لأن بدايتها لم تكن يومًا على هذه الأرض.
كانت تسكن الفراغ بين الحلم واليقظة،
بين مرآة الحمّام عند الفجر، وبين ظلّ نافذة لم تُفتح أبدًا.
وكانت تعرف، تمامًا، أن من جلس ليستمع لها، ليس سوى الطبيب الذي سيستيقظ على نفسه في المرآة ذات يوم، ويقول: كنت أنا المريض كل هذا الوقت.

وهكذا... تبدأ الحكاية.
أو تنتهي.
لكن، هل تُفرّق النفس بين البداية والنهاية ؟
هل تُميّز القصص حقًا بين من يُعالج... ومن يهمس بما وراء العقل؟

****

كانت المريضة الجديدة في مشفى بهمان هي هالة، في الثالثة والثلاثين من عمرها، تمامًا كأنها توقفت عند عتبة المرايا. لا هي عادت للوراء، ولا تجرأت على المضيّ قدمًا. اسمها يحمل موسيقى خفيفة، كما في

أغنية فيروز : (الزينة باعت حالها) ، لكنّ الحياة لم تكن نغمة رخيمة بل نصلًا صامتًا.

أجل، باعها وجهها، خانها شكلها، سُرق منها الجمال كما تُسرق التحف من معابد قديمة دون ضجّة.

لم تكن البداية مع المرض، بل مع جملةٍ واحدة نطقها طبيب باطني بلطفٍ فظيع:

(تبالغين في وصف مشكلتك... شكلك؟ لا مشكلة. أنتِ فقط مكتئبة)

صدّقت هالة الطب الأبيض وتجاهلت الحدس الأسود بداخلها.

قالت لنفسها : (أنا السبب، أنا أتوهم، أنا أحتاج علاجًا نفسيًا.)

لكن المرآة لم تكذب.

وجهها لم يكن وجهها، بل كائن جديد يتورّم في صمت:

جبهة نافرة، فكّ صلب يتقدّم كدرع، يدان وقدمان تضخمتا كما في الأساطير، كما لو كانت تتحول إلى شيء آخر، شيء ليس منها.

كان شكلها يتبدّل على مهل، لكنّ العالم حولها لم يمهلها.

خطيبها فسخ الخطوبة، صديقاتها لم يتعرفن عليها، حتى هي... لم تعد تعرف نفسها.

عندها فقط، قررت أن تزور طبيبًا نفسيًا، لا لأنها اقتنعت، بل لأنها كانت في طور التشكيك بكل شيء إلا الألم:

ربما أتوهم الظلم، حتمًا لا أتوهم تغيّر شكلي.

لكن الطبّ حين يُمارس كفطنة، لا كفهرس، يُنقذ الأرواح.

الطبيبة غاردينيا الأبيض، الزهرية الرؤى، لم تكن تحب تشخيصًا يُلقى كالحكم.

كانت ترى في وجه المرضى نداءً خفيًا، لا تسمعه سوى الآذان التي سكنت الألم يومًا.

ما أن رأت صورة هالة (قبل وبعد)، حتى رنّ في رأسها ناقوس من نوع مختلف.

لم تُشخّص اكتئابًا... بل رأت حالة طبية مرضية مرئية على الجسد، لا تُداوى بالحوار بل بالتحليل والتصوير.

أمرَت فورًا بفحوص دم هرمونية، وصورة رنين مغناطيسي للدماغ.

النتائج لم تتأخر:

السبب لم يكن نفسياً فقط، بل عضوياً : (**ورم في الغدة النخامية يُفرز هرمون النمو بإفراط.**)

التشخيص الحاسم : **ضخامة النهايات** - **Acromegaly**

ذاك المرض اللعين الذي يُحوّل الإنسان إلى كائن أكبر من حجمه، أقسى من روحه، وأكثر وحدةً من مرآته.. و الذي استلهمت منه رواية جميلة و الوحش .. فكان وحش الرواية مصاباً به ..

لكن لحسن حظ هالة، أن غاردينيا لم تُشخّص الاكتئاب بل أنصتت لما

وراءه.

فمن قال إن النفس لا تلبس أقنعة الجسد ؟

ومن قال إن الجسد لا يصرخ عندما تُحبسه الروح في قفص التشخيصات المستعجلة ؟

في ليلة لم يكن للقمر فيها نية التوهج، ولا للسماء ما يكفي من النجوم كي تعين القلب على وحدته، انهارت هالة بصمتها المهيب. سمعت ما لم تكن مهيأة لسماعه :

خطيبها السابق عقد قرانه على امرأة أخرى...

ويا للمفارقة ، كانت تلك المرأة صديقتها.

لم تكن الخيانة الجديدة، بل الخسارة المتراكمة، هي ما فجّر في داخلها صرخة دفينة؛

صرخة تشبه طلقة لم تطلقها في وجه أحد، بل ارتدت نحوها، واخترقت قلبها كأنها سهم لا يخطئ.

ضغطت هالة صدرها بكلتا يديها كما لو كانت تحاول كبح انهيار جبل من الداخل، ثم صرخت :

صخرةٌ تجثم على قلبي... أنقذوني !

وانطفأت.

أُسعفت إلى المستشفى، والكل يظنها تعرضت لنوبة قلبية كلاسيكية، لكن الطبيبة، تلك التي ترى بالأذن، لا بالمجهر فقط، قالت بثقة حزينة :

كُسر قلب هالة... إنها **متلازمة القلب المكسور** أو ما يعرف باسم آخر

Broken Heart Syndrom :

لا انسداد في الشرايين، لا خثرة، بل حزن هائل تجلّى على هيئة نقص تروية،

كأن القلب، في لحظة، قرر ألّا يقاتل،

أن يستقيل.

تعافت هالة تدريجيًا من أزمتها القلبية، أو بالأحرى، من طعنة خذلانها القديم.

وفي جلسة صباحية مشمسة، قررت طبيبتها أن الوقت قد حان:

يجب إزالة الورم من الغدة النخامية، يجب تحرير هالة من أسر التشوه، من قيد الهرمون الطاغي.

أجريت لها التحاليل اللازمة، وتم التحضير للجراحة، وبقيت في المستشفى ذاته الذي كان يحتضن الجسد المتجمد لمدير السجن حسّان، في غرفتين بعيدتين تمامًا، لكن تتقاطع فيهما فلسفة الحياة القاسية :

جسد يتحول إلى زنزانة، وجسد يحاول أن يُولد من جديد.

كانت هالة حديث الجميع. ليس لندرة مرضيها فقط، فالمزج بين متلازمة قلبية نفسية وورم دماغي يعدّ استثناءً طبياً،

لكنّ السبب الأعمق لدهشة الأطباء والتمريض كان: صوتها.

رغم الألم، ورغم الجرح الذي شقّ قلبها قبل رأسها، كانت هالة تغني،

بصوتٍ لا يأتي من الحنجرة، بل من الروح مباشرة.

صوت يوقظ فيك الرغبة أن تبكي، ثم يعتذر لك لأنك بكيت.

كانت الممرّضات كحال الأطباء يمرون من باب غرفتها بخفة، يتركون لحظات عملهم ليسترقوا استماعًا لأغنيتها اليومية.

كانت ترتل السلام الداخليّ كأنها ملاك يعالج نفسه بالغناء، كأن الألم لا يهزم الصوت... بل يجعله أوضح، أشدّ حضورًا.

هالة، بجسدها الذي خذلها، ووجهها الذي تغيّر، وقلبها الذي كُسر،

صارت رمزًا في أروقة المستشفى...

أنّ الجمال لا يُطفأ، بل يعاد تشكيله.

وأن الحزن، في بعض النفوس النادرة، لا ينتج العدم، بل الموسيقى.

كانت هالة تشفى لا من ورم دماغ فحسب، بل من تشوهات زرعتها الحياة في أعماقها منذ زمن طويل، تشفى من نظرة الآخرين ومن نظرتها لنفسها، من صوتها الداخلي حين كان يُشبه طنيناً في جمجمة فارغة... فإذا بصوتها بعد الجراحة يعود موسيقى خافتة أولاً، ثم تغدو مع كل يوم أكثر إشراقاً.

ومع كل تراجع للورم، كانت عينها تبصر، وقلبها كذلك.

في الممر الهادئ بين العيادة وغرف الأشعة، مرّت للمرة الأولى أمام الطبيب سالم، الذي لم يكن يشبه أي طبيب مرّ في حياة هالة.

رجل في منتصف الثلاثينات، وسيم بلا تكلف، يحمل في ملامحه شيئًا من المراهقة التي لم تكتمل، أو من الطفولة التي لم تُحتضن كما يجب.

كان هو الطبيب المختص في الغدد الصماء، الذي تابع استئصال الورم ومراحله بدقة شديدة، لكن الغريب أنّه لم يكن يهتم فقط بالتحاليل والنتائج ، بل كان يقرأ ما خلف الكلمات، يلاحظ كيف تتغيّر نبرة هالة وهي تحكي، كيف تنكسر عيناها حين تضحك.

سالم لم يُغرَم بها لأنّها ضعيفة، بل لأنّها قوية.

كان يسحره عقلها، ليس لأنه منطقي، بل لأنه خلاصة ما تبقّى من قلبها بعد كل ما احترق.

وقد لا يكون غريبًا أن يشعر بتلك الصلة الخفية بها، فذاكرته لم تزل تحمل ألم تنمّرات الطفولة، حين كان الطفل الأقصر بين أقرانه بسبب اصابته بالقزامة نتيجة عوز هرمون النمو، يخجل من الوقوف في الصفوف الأولى، ويختبئ في حقيبته الصغيرة.

ذاك الألم كان يوماً دافعه ليصبح طبيبًا، وليختار علم الغدد لا حباً بالعلم المجرد، بل رغبةً عميقة في فكّ شيفرة النقص، في إعادة تعريف النمو، لا في الجسد فقط، بل في الروح.

حين أحبّ سالم هالة، لم يكن حباً مباغتًا، بل تراكماً ناعمًا، نشأ من احترام، من إنصات، من فهم، من تشابه جراح لم تُعرض في العلن.

وحين قرر أن يتقرّب، لم يكن الأمر كما يفعل الأطباء حين تطوّقهم متلازمة المنقذ ، بل كان قراراً نابعًا من النضج ، أن يحبّ امرأة اجتازت الجحيم وحدها وعادت لتروي القصة، امرأة لم تعد تطلب الإنقاذ، بل الاحترام.

وحين خرجت هالة من المشفى، كانت أكثر خفة، كأنها فقدت مع الورم كل ما كان يثقل قلبها، تبادلت مع سالم الرسائل، أفكارًا، وضحكات، ومقاطع موسيقية، ثم صورًا من الكتب التي يقرآنها معًا.

ولأن الله عادل حين يشاء، ولأنّ الحب حين ينضج لا يحتاج لتسويق أو مسرح،

كان الارتباط هو الخطوة البديهية التالية.

تزوجا.

واختارت هالة أن تعيش معه في القاهرة، في بيت مطلّ على حديقةٍ صغيرة، تزهر فيها كل الزهور التي كانت قد نسيتها حين اعتقدت أن الحياة لا تنبت بعد الخذلان.

وبدلاً من أن تكون (المريضة هالة) ، صارت (هالة الشمس المشرقة) ، ملهمة من التقت بهم، ومثالاً على أن الجمال ليس ما نولد به، بل ما نبنيه فينا بعد أن نُهدم.

****

لم يكن سالم فقط ذاك الطبيب الذي يفهم الهرمونات، بل كان رجلاً يفهم القلوب التي تغير شكلها من الحزن، لا من المرض.

رقيقًا دون ضعف، ثابتًا دون صلابة، وناعمًا في حضوره كأنّه وعدٌ من السماء أن كلّ ما مرّ كان لا بدّ أن يحدث، كي يصل إليها.

لكن الأهم من ذلك كله، أن سالم لم يكن يرى هالة بعينيه فقط، بل ببصيرته.

كان يرى خلف تقاطيع وجهها التي غيّرها الورم، خلف الملامح المتعبة التي أثقلها الألم والتعب والخذلان، كان يراها كما يجب أن تُرى... نقية، قوية، خالدة كأغنية قديمة لم تفقد نضارتها رغم الزمن.

ومع مرور الأيام، وازدياد تعلقه بها، لاحظ شيئًا عميقًا...

أن هالة، رغم تحسن حالتها الصحية، ما زالت سجينة نظرات الآخرين.

كلما نظرت في المرآة، لم تكن ترى التحسن، بل تستعيد ملامح الخذلان، نظرات الشفقة، كلمات الطبيب الأول، خيانة خطيبها، وتلك اللحظة التي شعرت فيها أن الكون كله يدينها لمجرد أن شكلها تغيّر.

سالم كان يعرف تمامًا ما يعني أن يُختصر الإنسان في مظهره، لأنه مرّ بتجربة معاكسة تمامًا.

هو الذي عانى من نقص الطول حيناً من الدهر، ما زال يحتفظ بصورة طفله الداخلي واقفًا خلف كل الصفوف، محني الرقبة، ينتظر أن يُقبَل.

لكنه عَرِف لاحقًا أنه لن ينمو حقاً إلا إن سمح لحبه أن يتجاوز القوالب، وأن يجعل من كل ندبة وسامًا.

وفي لحظة صفاء، اقترح عليها اقتراحًا جريئًا...

ليس جريئًا لأنه غير متوقع، بل لأنه يطلب منها التحرر الكامل من نظرة الآخرين ..

● سالم : أتعرفين ما هي أفضل طريقة للتعامل مع تعامل الناس السلبي معك ؟

○ هالة : ما هي حبيبي ؟

● سالم : أن تواجهي الناس كافة دفعة واحدة وتجعليهم يرون جمالك الداخلي العقلي والروحي...

○ هالة : وكيف ذلك ؟

● سالم : سأقدم لك في برنامج المواهب (**الموهبة تحكم**).

○ هالة : لا أستطيع، ما إن تراني لجنة التحكيم حتى ترفضني بشكل قاطع، سينفرون من شكلي ...

● سالم : هذه هي ميزة هذا البرنامج عن غيره، أي أن لجنة التحكيم ستسمع صوتك أولاً، ثم توافق عليه بعدها يرونك و عندما تتحدثين سيرون جمال عقلك وروحك أكثر من مظهرك.

فكرت هالة قليلاً وهي مترددة ثم جمعت أشلاء ذكرياتها الممزقة من تنمر الناس..

- ○ هالة : موافقة، أنت محق، يجب أن يتعلم كثير من الناس أن يروا كامل الإنسان لا شكله فقط.
- ● سالم : تماماً، سأقدم لك مباشرة في البرنامج ...

بعد ثلاثة أشهر من الانتظار والتمرين، جاء اليوم المنتظر...

يوم التصويت على صوتها، لا على ملامحها.

يومٌ يشبه بداية عدّ تنازلي لصوتٍ ظلّ حبيساً طويلاً خلف جدرانٍ من نظرات الآخرين، وأحكامهم السطحية.

دخلت هالة الاستوديو بصحبة زوجها الطبيب سالم، يداً بيد.

كانا معًا يشبهان قصةً مكتوبة على مهلٍ، بحبرٍ من حب، وورقٍ من تعاطف نادر.

تألقت عيناها رغم بساطة المكياج، ليس لأنها أرادت أن تبدو أجمل، بل لأنها عرفت أن الجمال الحقيقي لا يُرى، بل يُسمَع.

المسرح أمامها، الأضواء مشتعلة، الجمهور ينتظر، الموسيقى تبدأ.

وقفت بثبات. أنفاسها عميقة. ابتسامتها تشبه شعاع شمس في يوم شتوي.

لحظة دخول صوتها إلى المايكرفون كانت لحظة توقف فيها الزمن.

صوت هالة لم يكن غناءً فقط، كان شفاءً.

شفاءً لها، ولمن يشبهونها، ولكل من فقد إيمانه بصوته لأنه ظن أن وجهه لا يليق بالحلم.

لم تمر سوى ثوانٍ قليلة، حتى ضغطت أربعة أزرار حمراء دفعةً واحدة، من حكام منبهرين بصوتها و باصمين على قرارهم:

كلهم يريدون هذا الصوت.

دارت كراسي لجنة التحكيم نحوها.

تغيرت وجوههم من الانبهار إلى الذهول.

هالة لم تكن مغنية مألوفة الشكل، بل كانت استثناءً...

وللحظة ارتبكت، خافت أن يعود الشبح القديم : شبح النظرة الأولى.

لكنّ الجمهور فاجأها، تمامًا كما فاجأها القدر يومًا بأن سالم ليس ككل الرجال.

وقف المسرح كله على قدميه.

تصفيق لا ينتهي، وهتافات تتصاعد، اسمها يُنادى كأنها أنقذت شيئًا فيهم هم أيضًا.

هالة… هالة… هالة...

كانت الكلمات تخرج من أفواه الناس بصدق، تشبه الاعتذار الذي لم تسمعه يومًا.

دموعها سالت بصمت. ليست دموع الحزن، بل دموع استرداد الكرامة.

كانت تبكي، لا لأنها تألمت، بل لأنها أدركت أن الجمال في النهاية لا يُرى، بل يُشعر.

و في لحظة تعاطف و تشجيع صعدت إحدى أعضاء اللجنة، امرأة قوية، ورقيقة كأنها أم ثانية، واحتضنتها على المسرح أمام الجميع...

فانهارت هالة بين ذراعيها كأنها تقول : **أخيرًا... أخيرًا تقبلني أحدهم.**

وفي تلك اللحظة تحديدًا، لم تعد هالة قصة فتاة انتصرت رغم شكلها،

بل أصبحت رمزًا لكل من ظُنّ أن صوته لا يليق بالضوء.

أصبحت أنشودة للوعي، لطب النفسي، ولحقيقة بسيطة :

لا أحد يُشفى تمامًا من الألم... لكنّ بعض الأصوات تشفي أكثر مما توجع.

● أحد الأعضاء : اسمك يا فنانة يا مذهلة ؟

○ هالة : هالة الشمس...

● أحد الأعضاء : فعلاً هالة الشمس، ما هذا الصوت الملائكي ؟ هذا الأداء المذهل والمتقن ؟

○ هالة : شكراً لكم، في الحقيقة كنت متخوفة كثيراً قبل البدء من ردة فعلكم والجمهور على مظهري الخارجي، فأنا أعاني من مرض ضخامة النهايات مما جعل شكلي الخارجي فظاً وخشناً.

وقف **بسام ياسين** المخرج والكاتب المعروف، أحد أعضاء اللجنة، ثم قال :

● بسام : كل منا له عيوبه وأمراضه الجسدية أو النفسية الخاصة، هذا

لا يعني أن يستسلم ويمنع الآخرين من رؤية جماله الحقيقي في أمور كثيرة ... أنا مثلاً وسأعلنها على الهواء مباشرة لأول مرة، أصبت في طفولتي **بفقر دم شديد بسبب ديدان في بطني** وفقر الدم هذا سبب لي حالة مرضية تدعى **بيكا**، دفعتني لأكل أشياء غريبة مثل التراب، كنا فقراء جداً، والفقر يفعل في البطن أفعاله..

صمت عضو لجنة التحكيم قليلاً، ثم أضاف بشكل صادم وهو يضحك..

●بسام : أكلت كل شيء حتى البراز ...

هنا انفجر الجمهور بالضحك بما فيهم أعضاء لجنة التحكيم .. وابتسمت هالة، هي تشعر بعد كلام بسام ياسين عن نفسه بهذه البساطة بأن جبلاً انزاح عن ظهرها، وبأن الحياة جميلة و الناس لطيفون، رغم كل شيء هم يستحقون مشاركة ما هو جميل فينا معهم ...

○ هالة : أشكركم جميعاً، أنتم رائعون.

● أحد الأعضاء : نحن نشكرك على ثقتك بنفسك وبنا ومشاركة هذا الصوت الملائكي معنا، لقد منحناك أربع موافقات وستنتقلين معنا إلى المرحلة القادمة ...

○ هالة بسعادة لا توصف : أشكركم فرداً فرداً، أريد أيضاً شكر طبيبتي النفسية، دكتور غاردينيا الأبيض: أنت سبب أساس في استمراري، وزوجي الطبيب المسالم: سالم، أنت روحي و سندي ...

حيتهم و غادرت المنصة والمسرح يغلي بالهتاف والتصفيق..

استقبلها زوجها سالم بالعناق والبكاء...

****

كان ذلك اليوم أكثر من مجرّد بداية، كان انفجاراً ضوئياً في نفق طويل ظنّت هالة أنها ستُدفن فيه إلى الأبد.

ما إن انتهى العرض، حتى بدأت الأبواب تُفتح، ليس فقط أبواب الإعلام ، بل أبواب القدَر أيضاً.

انتشرت شهرتها كاللهب في الهشيم، لا لأنها امتلكت صوتًا نادرًا فحسب، بل لأنها حطّمت قوانين الرفض السطحي التي تحكم هذا العالم...

العالم الذي طالما آمن أن الجمال مدخل القبول، والمظهر هو المعيار الأول.

لكن وجهها المختلف، ملامحها التي نحتها المرض، لم تعد تشكل عائقًا... بل صارت بوابتها للقلوب.

ولعدالة القدر حين يبتسم — أحيانًا بابتسامة خفية لا يدركها البشر سريعًا— كان الشكل الذي خذلها قديمًا، سببًا لشهرتها وتعاطف الملايين معها اليوم.

صار الناس يهمسون بإعجاب، يبكون أمام شاشة، يصفقون لجمال لا يُرى،ويعيدون ترتيب مفاهيمهم الباهتة :

من قال إن الجمال عكس القبح ؟

الجمال عكس سطحية الأرواح.

والفضل، كل الفضل، بعد الله، كان لسالم.

ذلك الشاب النبيل، الطبيب الذي حمل على عاتقه معنى الحب الشافي ،

فقد آمن بهالة عندما كفّ العالم عن الإيمان بها،

أعادها إلى الحياة من هاوية بَنتها بيدَيها، ورممها حتى صارت نغمة...

تحوّلت الأحاديث:

من : هذه هالة، زوجة الطبيب الوسيم سالم

إلى : هذا سالم، زوج الفنانة الكبيرة هالة

ولا أحد من العقلاء حزن لهذا الانقلاب، لأن كلّ قصة صعود عادلة يجب أن تنقلب.

وبينما تعيش هالة الآن تحت الأضواء، قلّة فقط تعرف سرّ الحلقة المغلقة... أثر الفراشة الذي ينتقل من نسمة إلى نسمة .. حتى يبلغ الإعصار ..

هالة... هي نفسها تلك الفتاة التي حاول حسان مدير السجن تجنّب صدمها في الشارع، قبل أن تنقلب حياته تمامًا.

ورمها النخامي حينها كان يضغط على التصالب البصري،مسببًا عمىً جزئيًا، منعها من رؤية سيارته قادمة،

فحدث الاصطدام، ووقع حسان في هاويته الخاصة،

بينما هالة وقفت مذهولة في الشارع،

تبكي... تبحث عن عيادة غاردينيا الأبيض، ولا تعلم أن الانهيار ذاك، كان ولادة.

كثيرًا ما ظنّت هالة أنها في المكان الخطأ، في الزمن الخطأ،

لكن مع مرور الأيام، ومع اتضاح خريطة المصائر، فهمت الحقيقة العظمى:

(الله لا يخطئ في التوقيت، بل نخطئ نحن في الفهم.)

هالة اليوم لا تملك فقط لقب فنانة،

بل تحمل نجمًا ساطعًا اسمه الإلهام.

أصبحت مرآة لكلّ من يشعر أنه غير كافٍ، غير جميل، غير مقبول.

حققت نبوءة الشعر:

دع المقاديرَ تجري في أعَنّتها

ولا تبيتنّ إلا خاليَ البال

ما بين غَمضةِ عَين و انتباهتها

يُغيّر الله من حال إلى حال

رغم شهرة هذا الشعر، لا يزال قائله مجهولًا،

وهو ما يجعل الحكمة فيه أشدّ صدقًا، لأن الحكمة الخالصة لا تحتاج اسمًا.

في النهاية، كل شيء يتحوّل:

الشكل يذبل، الشهرة تُنسى، الأموال تُصرف...

لكن الوعي الذاتي يبقى.

هو الكنز الوحيد الذي لا يسقط من اليد ولا يُسرق من الجيب.

هو ما يجعل الإنسان مرنًا كالماء، راسخًا كالجبل.

وحدها **كرة أمبادوقليس** كانت قادرة على تفسير ما عجزت عن شرحه علوم النفس والفلسفة :

(أن الكون لا يستقيم إلا إذا تعايش الحب والكراهية، الصعود والهبوط، القبح والجمال ، و يبقى الطريق إلى السلام النفسي... هو أن تدور تلك الكرة بانسجام.)

أطفال

خارقون

كان هاني، في نظر زملائه، الطبيب الذي يضحك أكثر مما ينبغي، ويعلّق على كل شيء بأسلوب ساخر يشبه مسرحيات الجوع.

لكن أحدًا لم يرَ ما وراء تلك النكتة، لم يسمع صدى ضحكته حين يرتطم بجدران الطفولة المعتمة، هناك حيث كان الضوء الوحيد، هو عمود إنارة على طرف الزقاق، درس تحت وهجه الضعيف وكأنّه يقرأ على فتيل نجمة.

ذلك الصبي الذي كان يطوي جوعه بطموح، ويبلع دموعه مع الهواء البارد، لم يكن يعرف أن ما يتشكل فيه آنذاك هو وعي نادر.

وعي الطين الذي عجنته الأحلام فصار صلصالًا قابلًا للنحت.

وعيه بأنَّ أشد الأطفال تهكماً .. هم أشدهم ألما .. و هم أكثر الناس حاجة لمن يفهمهم.

ولهذا السبب، لم يختر هاني الطب النفسي فقط، بل اختار طب نفس الطفل، لأنَّه علم — بالتجربة لا النظرية — أنَّ الطفل الذي يُحتوى في ألمه، هو الإنسان الذي سيحب العالم لاحقًا دون كراهية.

صار من أهم الأطباء النفسيين في مجاله، لا لأنه قرأ كثيرًا، بل لأنه فهم كثيرًا.

فهم الطفل الذي يسخر من دراجته المكسورة ليبدو قويًا، الطفل الذي يرفض اللعب كي لا يُرى قميصه الممزق، والطفل الذي يضحك وهو ينهار في الداخل.

أما عن امتنان هاني، فلم يكن لأبويه، فقد رحلا وفي قلبه غصة، لا عليهما، بل على العالم الذي أذلهما، الطيبين حدّ الهشاشة...

الامتنان كان للرجل الذي رآه حين لم يكن يراه أحد: الدكتور علّام.

رجل أخطأ مرة حين عالج طالبة اسمها غاردينيا الأبيض بقلبه لا بعلمه، فكسر قلبها حين قرر أن يكون مهنيًا أكثر من اللازم، فظلّت غاردينيا تحبه وتجرحه بصمت، وظلّ هو يكفّر عن خطئه بعدم تكراره، حتى مع هاني.

قال له يومًا، بعد أن قدّم اعتذاره الصادق للمريضة ليلى :

(المعالج الجيد، يبدأ من فهمه لنفسه. لا يمكنك أن تعالج أحدًا وأنت تجهل نزيفك الداخلي)

نصيحة لم تسقط على قلب هاني عبثًا.

ذهب بعدها لجلسات علاجية، لا ليتخلّص من عقد، بل ليعرفها ويحتضنها.

ولأول مرة، لم يسخر هاني، لم يختبئ خلف المزاح، بل بكى.

بكى الطفل الجائع في داخله، بكى القهر القديم، ثم... ابتسم بطمأنينة نادرة.

الآن، هاني لا يضحك لكي لا يبكي، بل يضحك لأنه شفى البكاء القديم في داخله.

تحوّلت سخريته من سلاح دفاعي، إلى بلسم فكري، يستخدمه لفتح أبواب الإدراك في وجوه الأطفال الذين يعالجهم.

كان يعرف أن السند الحقيقي، ليس مَن يشبهك في الدم، بل مَن يمنحك الأمان دون شروط.

أن من يحتضنك حين تنكسر، هو أقرب إليك ممن حملك يوم ولادتك وتخلّى عنك لاحقًا.

أن رابطة الطمأنينة، إن تشكّلت بين شخصين، تصبح أثمن من رابطة الدم.

وهكذا، صار هاني ليس فقط طبيبًا ماهرًا، بل صار... سندًا حقيقيًا لعشرات الأطفال الذين لم يعرفوا دفء الحضن، ولا صدق الإنصات.

استمر هاني...

لأنّه لم يعد يبحث عن التصفيق، ولا عن انتقام عاطفي من العالم،

بل صار يعمل بطمأنينة تفيض من داخله، كتدفق نهر نسي منذ زمن معنى الجفاف.

في داخله، سكنت كلمة كانت تبدو يومًا ما خيالية :

المستحيل... ليس سوى مرحلة لغوية قبل أن نقول: لقد حدث.

وهكذا... استمر هاني.

****

على جدار غرفة نوم طفل، كانت صورة المطربة هالة الشمس تتوسّط كل شيء، تحيط بها قلوب صغيرة مرسومة بأقلام شمعية، وألوان مبعثرة من أمل طفل لا يعرف الاستسلام.

كانت الصورة مبتسمة، كأنها تبتسم له شخصيًا، كأنها تقول له :

(نعم، أنا غيّرت حياتي، وأنت أيضًا تستطيع)

كان هذا الطفل **خالد**، ابن العاشرة، أصلع الرأس من أثر العلاج الكيماوي، هزيل الجسد من معارك طويلة مع مرض لم يرحم طفولته: **ابيضاض الدم اللمفاوي الحاد**.

ذلك المرض الذي يسكن العظام، ويأكل منها الصلابة ببطء، بينما يصارع الطفل أن يظل طفلًا، أن يضحك، أن يلعب، أن يحلم.

خالد ليس ابن رجل عادي، بل هو ابن الكاتب والمخرج الشهير بسام ياسين، الذي لم يتعامل مع شهرة ابنه كدراما تلفزيونية، بل كحقيقة يمكن للناس أن يتعلموا منها، فيسردها بتواضع، وينشرها، وينير بها قلوبًا حالكة الظلمة.

في الأيام التي لم يكن فيها الدواء نافعًا، وفي الليالي التي لم ينفع فيها الرجاء، جاء الأمل من باب لم يكن محسوبًا... من الطبيب النفسي هاني.

ذلك الذي علم خالد شيئًا بسيطًا وعظيمًا في آن :

(الاستمرار هو المفتاح السحري الذي يفتح جميع الأبواب)

أحب خالد هذه العبارة.

أمسك بها كما يمسك الطفل بلعبته المفضّلة، كررها لنفسه كلما أوجعته الإبرة، وكلما بلع الدواء، وكلما نظر إلى المرآة وتذكر أنه لم يعد يشبه زملاءه في المدرسة.

ولأن المرض قد سرق منه المدرسة، والمشاوير، والنزهات، والضجيج، قرر أن يخلق له عالمًا خاصًا.

كان يقرأ لساعات عن مرضه، عن جهاز المناعة، عن كريات الدم

البيضاء، ثم استلهم شيئًا نادرًا...

لقّب نفسه بالجنرال ..

فهو القائد الأعلى للكريات البيضاء التي تتكاثر بجنون في دمه.

لم يرَ نفسه ضحية، بل رآها جيشًا.

ورأى الطبيب هاني، بخبرته وحدسه، أن هذا الخيال ليس مجرد هروب، بل بوابة علاجية مذهلة.

فبدأ يفتح معه صفحات من العلاج بالقصّ، لا بالنصيحة.

وطلب منه أن يكتب، أن يرسم، أن يتخيل، أن يصنع عالمه كما يشاء، مادام هذا العالم يمنحه القوة.

- الطبيب النفسي هاني : مارأيك أن تكتب قصصاً عن جميع الأصدقاء والأمراض التي حدثتني عنها، هكذا تمضي الوقت في صناعة أدب جميل...

- خالد : يا سلام يا دكتور هاني، فكرة عبقرية...

ومن يومها، صار الجنرال خالد يكتب قصة جديدة كل أسبوع، يروي فيها معارك جسده، ليس بلغة الطب، بل بلغة المجاز، بلغة الأطفال الذين لا يهابون شيئًا إن أحبوه.

كل قصة كانت رسالة أمل مدهشة، صراع بين الخير والشر، بين الجنود النبلاء في جسده، وأعدائهم المتخفّين.

كانت هالة الشمس الملهمة الأولى، لكنها لم تكن الأخيرة.

أراد خالد بدوره أن يصبح مصدر إلهام للأطفال المرضى، تعلّق صوره على الجدران ، ليستلهموا منها الصبر و العزيمة و الاستمرار ..

صورة الطفل الذي حوّل الألم إلى حكاية، والعلاج إلى مغامرة، والخوف إلى شجاعة مكتوبة.

ليس المرض من يسرق الحياة، بل نظرتنا إليه.

وخالد ؟

خالد كان يرى الحياة تنبت حتى من خلاياه المريضة.

يرى الأمل يزهر، كلما كتب قصة جديدة.

لم يكن خالد يكتفي بالحكاية، ولا بالخيال وحده. كان يشقّ طريقه في المعرفة كما يشقّ النهر طريقه بين الصخور: بإصرار صامت لا يلفت النظر، لكنه لا يتوقف.

أمسك بالخيط الرفيع بين القصص والطب، بين الألم والفضول، وراح ينسج منه جناحين.

كان قد خصّص دفترًا مميزًا، غلافه أزرق بلون السماء، يكتب فيه بخطه الدقيق - رغم رعشة يده أحيانًا - كل ما يتعلّمه من مصطلحات، تعاريف، وملاحظات صغيرة تحوي في طياتها أسئلة كبيرة.

عن الهرمونات، عن المناعة، عن العلاج الكيماوي، عن تأثير الحزن على القلب، عن الأمراض، و زعيمها الشرير (السرطان) ..

كان يدوّن لا ليحفظ فقط، بل لأنه كان يؤمن بأن المعرفة هي درعه الأوفى في معركته ضد ما يسكن نخاعه.

في ظهيرةٍ صامتة، دخل الأب بسام ياسين غرفة خالد، بخطى خفيفة لا تُقلق الأوراق، ليرى ابنه غارقًا في ضوء الشاشة، وأمامه دفاتره

مشرعة كالقلوب، وعيناه تمشيان على الكلمات بشغف غير مألوف لطفلٍ لم يُكمل عامه العاشر.

توقف بسام عند الباب.

كان المشهد أبعد من أن يُقاطع، وأعمق من أن يُوصف.

طفله الهزيل، الذي يقضي نهاره في ممرات المشفى، وليلته تحت أنابيب التغذية والعلاج، لا يشكو.

بل يكتب.

يكتب وكأنه يصالح جسده بالحبر.

يسامحه على ضعفه، ويحتضنه بالمعرفة.

لم يكن خالد يقرأ فقط عن مرضه.

كان يقرأ عن الآخرين، عن أمراض لم تصبه، عن حالات نفسية وجسدية معقّدة، وكأنه يُهيّئ نفسه ليكون طبيبًا في جسد مقاتل صغير.

وكأنّه يعرف أنه لن يُشفى فقط بالدواء، بل بأن يضع المرض يومًا ما على طاولته، ويشرحه بنفسه لأطفالٍ مثله...

يقول لهم :

(انظروا، هذا هو السرطان، وأنا أعرفه، وتعلمت كيف أتحدث معه)

في دفتره ذاك، لم تكن المعرفة جافة.

كانت ممزوجة بنبض قلبه، برسمات صغيرة، بنجوم يضعها فوق العناوين، وكأن كل معلومة هو نجم جديد في مجرته الصغيرة.

كتب في أعلاه : **(دفتر الجنرال خالد – أسرار الجسد والنجاة)**

● بسام : ما الذي تكتبه حبيبي في دفترك ؟

○ خالد : هذا سر بيني وبين الدكتور هاني الآن، عندما أنتهي من الكتابة أريه لك.

● بسام : حسناً، أنا متشوق للغاية.

○ خالد : أتعرف أبي، عندما أكبر سأصبح ضابطاً في الجيش و يطلقون عليّ تسمية (الجنرال) بشكل حقيقي.

● بسام : لم لا ؟ بالطبع، عليك ملاحقة حلمك حتى النهاية..

○ خالد : و هل يقبلون في الجيش مريض السرطان ؟

● بسام : حتى ذلك الوقت تكون قد شفيت حبيبي، ما من داعٍ للقلق...

○ خالد : حقاً !

● بسام : طبعاً، تذكر ما قاله الدكتور هاني: لا مستحيلات على هذه الأرض، ألا ترى هالة الشمس، كيف شفيت ونجحت؟

○ خالد : أحب الدكتور هاني جداً، وأحب هالة الشمس ..

صمت خالد قليلاً، ثم قال:

○خالد : وأحبك أنت أبي..

احتضنه خالد بحب أب يعرف قيمة الضنا إذا ضنى، وليس كل الآباء يعرفون قيمة الضنا ..

وقف بسام مطولاً، وقلبه يغلي بمشاعر معقد ة: فخر، ووجع، وحب يفيض حتى العجز.

أراد أن يقترب، أن يطري على ابنه، أن يقول له كم هو معجزة.

لكنه اختار الصمت، فقد علّمه خالد درسًا جديدً ا:

أحيانًا، الصمت في حضرة العظمة هو أبلغ امتنان.

وهكذا، استمر خالد، طفلاً لا يُهزم،

يكتب كي يُشفى، ويقرأ كي ينتصر.

يُعدّ دفتره، لا ليحفظ فقط، بل ليُخلّد.

قضى خالد ساعات طوال يبحث عن الأمراض الطبية ويكتب في دفتره، لكن للأسف بعد شهر، حدث نكس شديد للمرض لديه ونقل إلى المستشفى كالعادة...

في تلك الغرفة البيضاء الباردة، حيث يمتزج الأمل مع رائحة المعقمات، كان خالد يرقد كجندي خاض معاركه كلها في جسد صغير لم يتجاوز العاشرة.

جهاز المراقبة يرسم نبضه كخط زلزالي هادئ، والمحاليل تنقط إليه الحياة قطرة قطرة، ومع ذلك، كان يبتسم.

وجهه المتعب يضجّ بملامح من نوع مختلف:

ملامح من انتصر ولو خسر، من فهم اللعبة ولو رحل، من اختار أن يترك للعالم شيئاً جميلاً حتى في أيامه الأخيرة.

رفع خالد يده المرتجفة قليلاً، وأشار بعلامة النصر.

علامة لا يُتقنها إلا من قاوم بشرف، وقاتل دون صخب، وعاش كل لحظة وكأنها الأخيرة، فصارت لحظاته ذهبًا.

كان الطبيب النفسي هاني واقفاً عند باب الغرفة، يتأمل ذلك المشهد بروح تهتزّ، كأن قلبه علق في الهواء بين فخرٍ غامر ووجع صامت.

لم يكن ينظر إلى مريض، بل إلى معلم صغير في هيئة طفل.

طفل علّمه أن القوة لا تُقاس بعدد الخلايا السليمة، بل بعدد المرّات التي تبتسم فيها، رغم أن كل شيء فيك يؤلم.

أما والداه، فكانا يقفان إلى جانبه، يحملان وجوهًا نصفها من البكاء، ونصفها من الدهشة :

كيف يمكن لهذا الجسد الضئيل أن يحتوي كل هذا الاتساع من النور؟

كيف يمكن أن تكون الطفولة، في بعض الأحيان، أبلغ من ألف كتاب، وأصدق من ألف حكيم ؟

○ الأم والدموع في عينيها : أنا قلقة، هذه المرة خالد يبدو متعباً أكثر من العادة..

● الطبيب النفسي هاني : لا تقلقي، لقد فعلها (الجنرال) مرات كثيرة وسيفعلها من جديد...

● الأب : معك حق دكتور، ابننا بطل ذو جسد مناضل.

○ الأم : أرجو ذلك، لا أتخيل الحياة بدون خالد.

● الأب : هدئي من روعك، ستكون الأمور بخير...

○ الأخت : أبي متى سيعود خالد إلى المنزل ؟

● الأب : قريباً حبيبتي، بعد أن يأخذ أدويته جميعها.

في صدر خالد، لم يكن قلب واحد،

بل قلوب كثيرة :

قلب مقاتل،

وقلب شاعر،

وقلب طبيب،

وقلب طفل ما زال يتخيل أن كريات دمه البيضاء جنود حقيقيون يرتدون الخوذ ويحملون الرايات.

كأنه يقول :

(أنا بخير... طالما ما زلت أصدق أن جسدي ساحة معركة يمكنني فيها الانتصار)

ورغم الأجهزة، والأنابيب، والرنين البارد للأجهزة، كانت روح خالد تطفو بخفة...

كالنورس الذي يعلو فوق العاصفة، لا هربًا منها، بل لأنه ببساطة تعلّم الطيران وسط الريح.

يعلمنا كيف ننتصر.

ولو برفع إصبع واحد، نحمل فيه الحياة كلها.

مع أنفاس الليل الأخيرة ، حين كانت الأرض تمسح عن وجهها الظلمة ، وتتهيأ لاستقبال فجر جديد... ارتفعت درجة حرارة خالد بشدة وتسرع قلبه، دخل فيما يسمى حالة **تسرع بطيني قلبي**، تحول إلى **رجفان بطيني،** ثم توقف قلبه الصغير كعصفورمنهك من البرد في ليلة ماطرة، تلقى طلقة غدر، تسمى في مكان آخر، طلقة احتفال بفرح ما... حاول الأطباء انعاشه بكافة الطرق دون جدوى، لقد رحل خالد. وسط بكاء مرير من عائلته، ودّعوا الجنرال في ساحة المعركة... بكت عائلته كثيراً، وما تنفع الدموع في حضرة الموت، إلا في غسل زجاج الروح؟

في تلك اللحظة الحاسمة، لم يكن قلبه الصغير عاطلًا عن الحب، بل

منهكًا من الحب. لم يكن جسده مستنزفًا من المرض فحسب، بل مشبعًا بالتجربة، متخمًا بمعنى أكبر من عمره، أكبر من عظامه، أكبر من كل دفاتر الطب.

كان خالد طفلاً، نعم، لكنّه فهم الموت بطريقة لم يبلغها الكبار. لم يكن يخافه، بل استعدّ له كما يستعدّ الجنرال لخطّته الأخيرة... لا بعنف، بل بحكمة.

في غرفة المشفى، حين توقف قلبه عن النبض، لم يكن هناك فقط جسد يسلم نفسه للغيب، بل روح تتصاعد بثقة من أتمّ مهمته. كأن الحياة لم تكن ساحة حرب بالنسبة له، بل مكانًا مؤقتًا لزراعة بذور الإلهام في أرض الآخرين. ومن يزرع المعنى لا يموت، بل يتحوّل إلى نورٍ يتناقل بين القلوب.

حين علم الطبيب النفسي هاني برحيله، لم تدمع عينه مباشرة، بل انقبض صدره كأنما سُحب منه أوكسجين الإيمان بالعدالة الكونية. لم يكن خالد حالة سرطانية متقدمة ، كان سؤالًا كبيرًا عن حدود القدرة البشرية، و عن هشاشة النبض في مواجهة القضاء... وكان، في الآن نفسه، الجواب.

الجواب الذي لا يأتي من الأجوبة الطبية، بل من إدراك أن بعض الأرواح تولد لأداء رسالة عابرة، ثم ترحل قبل أن تُدنّسها الرتابة.

وقف هاني أمام النافذة، يرى غيوماً تتسلل إلى الصباح، كأنها تحمل روح الطفل في حضنها، وصوتَه الصغير الذي ظلّ يهمس للوجود:

(أنا لم أُهزم، فقط عدتُ إلى مصدر الضوء)

أيقن في تلك اللحظة، أن خالد لم يكن مريضًا مات، بل معلمًا انتهى درسه.

وكانت خسارته، رغم قسوتها، درسًا في الطمأنينة العميقة التي لا تُكتسب إلا من معايشة الألم حتى منتهاه.

هكذا علّم الجنرال الصغير الجميع درسًا لا يُنسى :

(أنك لست بحاجة إلى عمرٍ طويل، ولا إلى جسدٍ قوي، لتكون ذا أثر.

بل إلى صدقٍ نقي، وشغف بالحياة، وقلب لا يخاف النهاية.)

و في وصية أخيرة لم يسعف الزمن القاسي خالد ليتلوها ، وجه الطبيب هاني كلامه للأب المكلوم بسام ..

- هاني : أستاذ بسام، خالد موهوب في الكتابة جداً، الرجاء ابحث عن دفتره الذي كتب فيه القصص، حتماً سيفيد في تخفيف مصاب عائلتكم الكريمة...

انهمرت دموع بسام كأنها تحمل عن ابنه آخر كلمات لم تُقَل، آخر ضحكة لم تكتمل، وآخر حكاية لم تُروَ. لم يكن الدفتر بين يديه مجرد أوراق، بل كان تجسيدًا حيًّا لروح خالد التي رفضت أن تُهزم، وقررت أن تجعل من الهشاشة بطولة، ومن الألم حكاية.

كانت الصفحة الأولى تحمل عنوانًا بسيطًا :

(الأطفال الخارقون)

لكنه بدا كما لو أنه عنوان لمجرة كاملة تدور حول فكرة واحدة :

(حتى المرض يمكن أن يكون بطلاً، إن نظرنا إليه من زاوية القلب.)

تحت العنوان شبّه خالد مختلف الأمراض بشخصيات أبطال معروفة فمثلاً شبه **الابيضاض بكابتن أمريكا** الذي يدافع عن بلده وكتب بجانب

الاسم الجنرال خالد ، ثم وضع مرشداً **Mentor** للجنرال اسماه الطبيب النفسيّ الخارق هاني...

شبّه مرض **هيموكروماتوسيز** الذي يحدث فيه ترسب الحديد في الجسم **بالرجل الحديدي**.

وشبّه مرض **البورفريا الجلدية** التي يتحسس فيها المريض من الضوء **بالرجل الوطواط باتمان** الذي ينشط ليلاً فقط.

ومريض **السماك الجلدي** الذي يصبح جلده كحراشف السمكة **برجل المياه أكوامان.**

ومريض **ورم القواتم في غدة الكظر** الذي يصبح فيه المريض غاضباً ويفقد السيطرة على نفسه **بالرجل الأخضر هالك.**

إلى جانب كل شخصية وضع اسم صديق من أصدقائه في المدرسة والحي وكتب سيناريوهات مبسطة لمغامراتهم معاً.

قرأ الأب تلك المقارنة المذهلة التي صنعها ابنه بين أشد الأمراض قسوة وأشهر الأبطال الخارقين، كأن خالد أراد أن يُظهر أن الطفل الذي يعاني لا يقل شأنًا عن الرجل الحديدي، وأن الندبة ليست ضعفًا، بل درعًا من نوع آخر.

في كل تشخيصٍ وضعه، لم يكن خالد يُعبّر عن حالته فقط، بل كان يمنح الآخرين صوتًا لم يجدوه، جسدًا خارقًا لحالتهم الهشة، وصورة بطولية لما عاشوه من ظلام... حول مرضه إلى رسالة، ومعاناته إلى نور، وجعل من دفتره هذا شهادة ميلاد جديدة لأمل مختلف.

هاني، الطبيب النفسيّ، لم يخطئ حين رأى في خياله بوصلةً للشفاء، بل كان خالد، بذلك الخيال الجامح، يخلق لنفسه ولأقرانه عالمًا لا يسكنه الألم، بل يسكنه الاحتمال : احتمال القوّة، احتمال التحوّل، احتمال المعجزة.

وفي كل صفحة، بدا أن خالد لم يكن يكتب بالقلم، بل كان ينقش بإصبعه على جدار الزمن :

(أنا لم أكن مريضًا فقط، كنت فنانًا يرسم المعنى من المعاناة)

بكى بسام، لا لأن خالد رحل، بل لأنه عاد في دفاتره أقوى مما كان حيًّا.

فبعض الأطفال يولدون ليبقوا... لا في الجسد، بل في كل فكرة جميلة أخرجوها إلى النور ..

في كل شجاع تغلّب على ضعفه.

وفي كل هالك صغير، لم ينفجر غضبًا بل أضاء العالم بابتسامة.

و بذلك ، ظل الجنرال خالد حيًّا...

لا في جدران المستشفى، بل في كل طفل سيقرأ قصته، و يؤمن بأن مرضه، قد يكون بطولته الخفية القادمة ..

● الأب : انظري ياسمين، انظري، كم كان خالد عبقرياً ومناضلاً، حوّل مرضه إلى قوة وفخر...

○ ياسمين وهي تقرأ: يا حبيبي يا خالد، لازالت أصوات ضحكاتك تملأ الغرفة.

● الأب : لن أسمح لتعب خالد، جهده وذكراه أن تمر هكذا مرور الكرام...

○ الأم : وماذا ستفعل ؟

● الأب : سأجعل خالد حياً بيننا وبين الناس من جديد.

عقد بسام العزم في أعماق روحه، بعد أن أنهى قراءة دفتر ابنه خالد بعينين دامعتين وقلب مملوء بالأمل، أن يخلد قصة الجنرال خالد بطريقة

لا تنسى، لتصبح منارةً تهدي الأطفال الذين يعانون من الأمراض، رسالة شجاعة وإصرار لا تنكسر. استوحى فكرة برنامج تلفزيوني يحمل اسمًا نابضًا بالحياة والخيال: **الأطفال الخارقون** ، حيث تتجمع شخصيات أطفال يحملون في أعماقهم قوى خارقة، يقودهم بطل لا يُقهَر، الجنرال خالد، الذي تحول من معاناة جسدية إلى أسطورة تلهم العالم.

بدأ بسام ينسج خيوط الحكاية بحرفية وشغف، جلس لساعات طويلة أمام شاشة حاسوبه، يقلب صفحات دفتر خالد ويرسم بعيونه صورة العالم الذي حلم به لابنه، عالماً تسكنه الطاقات المذهلة، حيث يتحول الألم إلى قوة، والضعف إلى إرادة لا تلين. شهورٌ من العمل المكثف، من الحب والتفاني، حتى اكتمل له البرنامج الذي حمل في تفاصيله دفء القلب وبريق الخيال. قدمه إلى شركة إنتاج مرموقة، لم تأخذ إلا لحظات لتستجيب بحماس، مدركة أن هذا المشروع يحمل شيئًا أكثر من مجرد ترفيه؛ إنه رسالة أمل تُغذي الروح.

عندما أُطلق برنامج الأطفال الخارقون عبر شاشات التلفاز، سرعان ما تحول إلى ظاهرة تُشع فرحاً وإلهاماً في نفوس الأطفال حول العالم، لا سيما أولئك الذين يعيشون تحديات المرض والضعف. تمت ترجمة البرنامج إلى لغات عدة، ليصبح خالد ورفاقه أبطالًا عالميين يتحدث عنهم الأطفال في كل القارات. اسمه، **الجنرال خالد**، لم يعد مجرد اسم، بل أصبح رمزاً للانتصار على الألم، وأيقونة لقوة الفكر التي تعانق المستحيل.

ومع تزايد شهرة البرنامج، لم تمضِ فترة طويلة حتى قررت شركة عالمية أن تشتري حقوق تحويل هذه الأسطورة الصغيرة إلى فيلم سينمائي ضخم، احتفاءً بقصة خالد، التي دخلت قلوب الملايين، وامتدت كالشعلة في ظلام الألم.

في قلب هذا الفيلم، لم يكن الجنرال خالد شخصية عادية، بل أُعيد تجسيده بأفاتار حي ينبض بالحياة، يقف شامخاً، مستمراً في إلهام الأجيال. إلى

جانبه، مرشد وناصح عبقري يشبه تماماً الطبيب النفسي هاني، الذي لطالما كان دعماً ومُلهمًا لخالد في معركته، فأصبح هذا الأفاتار صوت الحكمة والطمأنينة، يدفع الجنرال نحو النصر.

وهكذا، وُلد خالد من جديد، ليس في جسد وإنما في روحٍ وقلب كل طفل يواجه تحدياته الخاصة. عائلته، التي فقدته جسداً، أصبحت ترى في هذا الفيلم لقاءً مستمراً مع روح خالد، تعيش من خلاله لحظات السعادة والفرح والإنجاز. كلما ضاقت بهم الحياة، كانوا يعودون إلى شاشة الفيلم، يرون وجه الجنرال خالد يبتسم لهم، ويهمس بأن القوة تكمن في داخلهم.

أما هاني، الطبيب النفسي، فكان يحمل في صدره عبئاً كبيراً من الألم والذكريات، فكلما نظر إلى إنجاز خالد، تذكر رحلته الخاصة مع آلام الطفولة. كان يعلم أن استمراره في طريقه، لم يكن فقط لإنقاذ نفسه، بل لإنقاذ آلاف الآخرين من أوجاعهم. لو لم يصمد، لما استطاع أن يكون ذلك المرشد العظيم الذي ساعد خالد على أن يتحول من طفل ضعيف إلى أسطورة خالد الخالدة ..

استمر، ولا تيأس، فكل سقوط هو ولادة جديدة للنور من ظلمات المحن. في هذا الامتحان الدائم للحياة، يقوى القلب وتترسخ الروح حين تختار أن تنهض مجدداً، لا كأحدٍ عاد إلى نقطة البداية، بل كمن يحمل بين يديه جذوة لا تنطفئ، تُشعل دروب الآخرين فتضيء الظلمات التي تعانقهم.

حديث الرسول الكريم :

(أحب الناس إلى الله أنفعهم لعياله)

، ليس مجرد كلمات تتردد، بل هو قانون خفي ينحت من ضعفنا صلبًا، ومن كسرنا جسراً، يُرشد به العابرين في ظلال الحيرة والعجز. فكل ألمٍ تكبّده، وكل عثرة تعثرت بها، تصبح قناديل تضيء الدروب لمن سيأتي بعدك، تلك التي لا تُشترى بثمن، ولا تُمنح إلا لمن صبر وجاهد.

الأرواح لا تموت، الأفكار لا تذوي، وما زرعه العزم في الأرض يثمر أبدًا. لا تضيع لحظة مثابرتك في هذه الحياة، فهي حبة نور تنقش في أبدية الوجود، لا تغيب في زوايا النسيان، بل تخلق موجاتٍ لا تنقطع من العطاء والتمكين.

الأشخاص يموتون أما الأفكار فهي خالدة للأبد، لا يمكن أن تموت.. لا يضيعُ عمرُ مثابر.

ميزان الحياة يختلّ أحياناً عندما تتحد شراذم الكراهية وتفكك روابطاً مستقرة، لكن الحب بجبروته وقوته يضمن خلود الأرواح التي ما نسته، هكذا يستمر استقرار كرة أمبادوقليس ..

عبقري

بالصدفة

في قلب هذا العالم المبعثر، حيث تتكسر صور العلاقات وتتلاشى الأوهام، نشأ علّام، ذلك الطفل الذي لم يكن محظوظاً بصفاء حياة عائلية مستقرة. كان بيتهم مسرحاً لصراعاتٍ لا تنتهي، وبين جدرانه كان يتخبط، يجد نفسه محاصراً بين أمه التي حملت عبء **اضطراب الشخصية الحدية**، وبين أبٍ غارق في **ثنائية القطب وأوهام الوسواس القهري**. كانت الخلافات بينهما ليست مجرد شجارات عابرة، بل معارك تترك أثراً عميقاً، تشق طريقها عبر ذاكرته وتتشابك مع أعماق روحه.

علّام لم يكن طفلاً عادياً، بل كان مرآة تشهد على مأساة عائلته، وصدى لما تحمله القلوب من وجعٍ غير مرئي. حاول مراراً أن يبرر لأبيه وأمه، أن يجد السلام في ضجيج خلافاتهم، محاولاً أن يعيد صياغة مشاهد طفولته التي تشبه متاهة بلا مخرج. كانت أحلامه تتصارع مع اللاوعي، تشحذ أسنانها وتكشف عن أنيابها حين يقترب منها، تحثه على الهروب، على البحث عن منفذ من عبء تلك الحياة.

وجد في الكتب ملاذه، في صفحات الكتب النفسية عالماً يتسع له، يفسر له لماذا كانت حياته هكذا، ولماذا يحمل أبواه أعباء لا يستطيع هو فهمها إلا من خلال تلك المعارف. هناك، بين الكلمات، اكتشف معاني جديدة للحب، للعائلة، وللألم. قرر أن يكون مختلفاً، أن يخرج من دوامة الألم ليصبح نوراً للمختلفين، صوتاً للذين لا يسمعون.

كان علّام يدرك أن كل أهل يحبون أولادهم بطريقتهم، حتى وإن بدت طرقهم عاصفة أو جارحة. طريقته الخاصة، تلك التي تحمل مزيجاً من الحب والاضطراب، جعلت حياته أكثر إثارة من أي رحلة إلى بلاد العجائب، رحلة ملأتها الوحوش، والصراعات الداخلية، والحيرة المستمرة.

وقد قال يوماً، بعبقريته المتواضعة، إن العلاقات الزوجية السامة لا تولّد إلا صكوكاً موقعة بالدمار لمستقبل أطفالها، وأن الطفل الذي يقف إلى جانب أمه، يتعاطف معها حتى آخر رمق، من دون أن ينجر إلى معركة من المخطئ ؟ ، هو الطفل الذي سينجح وسيبدع، هو الذي يحمل مفتاح الحياة.

تعاطفه مع أمه كان صمته الذي يصرخ، وأمله الذي يتوهج في الظلام. وحين أمعن في الفلسفة، حين استغل تفكيره العميق لتحليل ما اعتبره المفروغ منه، بدأ يرى الحياة من زوايا جديدة، رؤى شافية، كشف من خلالها النقاب عن الواقع الحقيقي لأهله وللناس من حوله.

وفي صباح جديد، حين عبر عتبة المستشفى، تساءل لنفسه بتواضع و نقاء : (من منا هو الكامل ؟ أهو من يبدو هكذا ؟ أم أن الكمال وهم ؟)

ثم أجاب بصوت داخلي هادئ :

(في الحقيقة، لا أحد كامل، نحن جميعاً مزيج من تناقضات، مختلفون، حتى داخل أسرة واحدة، ومع مرور الزمن تتغير أشكال اختلافنا، تتغير قلوبنا، ونمضي في رحلة لا نهاية لها من التعلم، التقبل، والتسامح.)

****

خرج **عمار**، ذاك الشاب الذي يناهز الثامنة عشرة، من قاعة السينما تحت سماء مساءٍ ملطخة بألوان الغروب، لا يزال قلبه يئن من وقع الفيلم الجديد الذي شاهدَه قبل دقائق؛ **فيلم الأطفال الخارقون**. لم يكن عمار ، ذلك المراهق اللامبالي ، ممن يلتفتون إلى العلوم أو التقاليد، لكنه وجد في قصة الفيلم شيئًا أشبه بالنبض الدافئ الذي غاب عن روحه منذ زمن بعيد. كانت شخصية الطبيب النفسي هاني، ذلك الهادي الحكيم في

القصة، قد أسرت فكره وعقله، ولامست شيئًا في أعماقه... شيء من الحنين إلى حياة صحيحة، ذات هدف ومعنى.

هذا الحنين، لم يكن مجرد شعور عابر، بل كان نزفًا خفيًا من جراح الطفولة التي خلفها انفصال والديه، حيث ابتعد والده بعيدًا، إلى الخليج فتزوج بامرأة أخرى، تاركًا أمًا تكافح وحيدة في صمتها، تعمل كمربية أطفال لتؤمن قوت عيشه. حياةٌ محاطة بالصراعات، إذ كانت أمّه متدينة متشبثة بقيمها، وهو في تراجع دائم نحو اتجاهات أبيه الالحادية التي بدت له غريبة وبعيدة عن السماء، وحيث نسيها، فنسي الأرض.

كانت الخلافات بينهم تشتعل بلا هوادة، والأصوات تتعالى، والجيران باتوا يعتادون سماع صراخ الأم وابنها، ووقع على عمار لقب الابن العاق في نظر المجتمع القاسي وأمّه التي حملت أحمال الألم والخذلان على كتفيها.

لكن في ذلك المساء، وبعد أن خمد ضجيج الفيلم، بزغ في داخل عمار نور دافئ، رسالة غامضة، شمس جديدة تطل من قلبه دون أن يعرف ماهيتها، لكنها كانت تملأه بحالة من السلام المفقود منذ زمن بعيد.

كانت كلمات الطبيب النفسي هاني تتردد كأنها نغمٌ مألوف بين صدغيه ، تعانق نبض قلبه الصغير:

(أنت كما تحلم أن تكون... أنت من تريد أن تكون...)

الاكتئاب يشبه داء السكري... ففي السكري ينقص الأنسولين، وفي الاكتئاب ينقص السيروتونين...

عمار، الذي يعاني منذ طفولته من داء السكري النمط الأول، كان يعرف

أنه يحتاج إلى جرعات الأنسولين لأن غدة البنكرياس عنده لا تنتج هذا الهرمون الحيوي، المسؤول عن دخول السكر إلى الخلايا لإنتاج الطاقة، وخاصة لعقله. وهنا تساءل في صمت عميق :

(هل يعاني عقلي من نقص السيروتونين ؟ هل هذا هو سر تعاستي المستمرة ؟ هل هذا هو الاكتئاب الذي يربطني بالحزن ؟)

تسكع في الأزقة، مع أصدقائه، حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم عادت به خطواته إلى منزله. وبينما كان يمر بأحد الزواريب المظلمة، ارتسمت أمامه ظلال شابين ضخمين، أكبر منه سناً، أحدهما يمسك عصا خشبية ثقيلة، وتوجه إليه بنبرة تهديد :

- الشاب ذو العصا : بسرعة و بدون كلام أعطنا محفظتك...
- عمار : وماذا لو لم أفعل أيها الضعيف ، هل ستموء كالنساء ؟

غضب الشاب من جرأة عمار :

- الشاب : سترى من هو الضعيف الآن...

وانهال الشابان بالضرب على عمار، فما كان منه إلا أن عضّ الشاب ذا العصا، فضربه بها بقوة على رأسه وفقد عمار الوعي مباشرة.

أخذ الشابان المال من محفظة عمار وهربا بسرعة الظل، تاركين خلفهما فجوة من الألم والدهشة في قلب الشاب المراهق. لم يكن عمار مستعدًا لهذا الاعتداء، لكنه استجمع قواه وحاول الوقوف، حتى غمره دوار مفاجئ وسقط على الأرض مجدداً، حيث فقد الوعي مطولاً ..

استيقظ مع بزوغ الفجر، والبرودة تنساب عبر جسده، ليجد الدم يتصبب من جرح غائر في رأسه. بحذر، وضع يده على مكان الإصابة، شعر بجرح مفتوح، لا بد أنه يحتاج إلى خياطة عاجلة، لكن ما أثار رعبه أكثر من الجرح نفسه، كان ذلك الاضطراب الغريب الذي بدأ يغزو تفكيره... كأن عوالمه البصرية انقلبت، حيث كانت الصورة التي تحيط به تتفتت إلى مثلثات حادة ودوائر متشابكة، ومؤشرات هندسية تتراقص أمام عينيه، كأن عينيه لم تعد ترى العالم كما هو، بل بعيون رياضية باردة تذوب فيها التفاصيل وتتعالى الهندسة على العاطفة.

عاد إلى منزله، خطواته متعثرة، قلبه مثقل بالهلع، وضوء الشمس الذي بدأ يخترق أركان البيت كان يلسع عينيه، فتسارع إلى سحب الستائر بكل دقة وعناية، أغلقها مرات ومرات، كما لو أن الظلام وحده يملكه، وبتوتر متزايد دخل غرفته، ليغلق الباب خلفه بالمفتاح عدة مرات، ثم عاد ليغلق ستائره الخاصة، تأكيدًا على عزله الحاد عن العالم الخارجي.

في صباح ذلك اليوم، استيقظت السيدة ابتسام، والدة عمار، على غياب ضوء الشمس المعتاد في المنزل، فوجئت بالستائر محكمة الإغلاق، شعرت بقلق يتسلل إلى أعماقها. توجهت على وجه السرعة إلى غرفة ابنها، لتجد الباب موصدًا بحزم، غير أن رائحة القلق غمرت المكان. طرقت على الباب أكثر من مرة، لكن لم يرد أحد. استجمعت شجاعتها وقررت الانتظار قليلاً قبل أن تسمع صوت أنفاس ابنها المرتبكة من الداخل فنادت عليه ..

أخيرًا، نهض عمار ببطء، فتح الباب لينير وجه والدته المرتاح أخيرًا على مشهده، لكنه لم ينسَ جرحه العميق، الذي غطى رأسه وملابسه بدمائه. في تلك اللحظة، كان الصمت أبلغ من الكلمات، وعينا والدته تحملان جزع الأم التي لا تزال تحاول فهم عاصفة الألم التي تجتاح

ابنها، تلك العاصفة التي لا يراها سوى هو وحده.

○ ابتسام : يا الله... ماذا حدث ؟ ماذا أصابك بني ؟

● عمار : لقد تعرضت للسرقة من قبل شابين ضربني أحدهما على رأسي بعصا ولا أعرف ماذا حدث بعدها، لكنني الآن أرى كل شيء بشكل مختلف أماه، أنا خائف...

قلقت الأم أكثر لكنها حاولت طمأنة عمار...

○ ابتسام : لا بأس حبيبي، بحماية الرحمن، هيا بنا إلى المشفى، لنقطب جرحك ونصوّر رأسك...

في المشفى، كان الهمس الهادئ لأجهزة الرصد الطبي يرافق خياطة الجرح بعناية فائقة، بينما كان فريق الأطباء يراقب بعيون دقيقة صورة رأس عمار عبر الأشعة، يبحثون عن أي أثر لنزيف دموي أو أي إصابة كبرى. مرت الدقائق وكأنها أبدية، ثم جاء التشخيص بلهجة مطمئنة :

(ارتجاج دماغي شديد، يحتاج فقط إلى راحة مطلقة .. راحة، ثم راحة)

جلست السيدة ابتسام، والدة عمار، بجانب سريره، وأخذت ترتل آيات القرآن الكريم، تدعو لابنها، تحاول بثّ الطمأنينة في قلبه الذي يختزن عاصفة الألم والخوف. كانت كلماتها الرقيقة كنسيم يمسح جراح الروح، تسير معها حتى تشتد رياح الفجر وتعلن بداية يوم جديد.

عاد عمار وأمه إلى البيت، وكأنهما يعودان من معركة، يتخللها صمت ثقيل وقلق مكبوت. دخل عمار غرفته التي أمست ملاذه من العالم الخارجي، حيث تعبق في الهواء رائحة التبغ المعتادة، غيّر ملابسه بدقة

، ثم خرج إلى الصالة، يمضي بنظرة تفتش الأبواب ونوافذ البيت، يعيد التأكد من أمان المكان كما لو أن هذا التفقد يمنحه حصنًا غير مرئي ضد ما يهدده.

في الأيام التي تلت، بدت ملامح عمار تتحسن، لكن ظل وسواس التفقد يتحكم به، كظل طويل لا يفارقه. أمه تراقبه في صمت، تحاول أن تفسر هذا التغير، ربما هو خوف متأصل من مهاجمة أولئك الأشقياء الذين اعتدوا عليه، لكنها لا تستطيع أن تتجاهل التفاصيل التي بدأت تتسلل إلى حياتهم : استحمامه الطويل الذي يكاد يكون طقسًا يوميًا، ترتيبه المنهجي لأشيائه، همساته المتقطعة بصلوات غريبة، تكرار عديد المرات لعدّ بلاطات البيت كما لو كان يبحث عن أمانٍ سري في الأرقام.

كانت السيدة ابتسام، على مدار سنوات، مربية أطفال طبيبة الجلدية نيل الحكيم، امرأة بسيطة تحمل عبء الحياة ومسؤولياتها، لكن هذا الأسبوع ، ومع حالة ابنها، اتصلت بالدكتورة نيل، معذرةً عن الحضور للعمل، باكيةً عن معاناة عمار، تلك القصة التي تحكيها بلسان الأم المكلومة والقلقة، أم تراقب ابنها وهو يصارع ظلال مخاوفه التي تلتصق به كشباك العنكبوت في زوايا الغرفة.

هنا، تمازجت قصة الألم والخوف مع قصة الأمل والصبر، وبدأت رحلة لا تنتهي من مواجهة الأوهام، محاولة فك رموز العقل والجسد الممزقين.

○ نيل : هذه أعراض الوسواس القهري سيدة ابتسام ، يجب علاجه، عليك بالطبيب علّام همام، من أنبل الناس.. تصوري من أشهر، كنت مسرعة في سيارتي لأصل البيت قبل الأولاد، يومها كنتِ أنت في الحج، اصطدمت سيارتي بسيارته، تعامل مع الموضوع ببساطة وحكمة، و

فوق هذا تكفل بكل التكاليف، قال لي :

- الأمهات العاملات بركتنا...

هو طبيب نفسي، لكني سمعتُ من طلاب الطب أن اختصاصه الدقيق هو في الأمراض المرافقة لمرض التوحد، والوسواس القهري واحد منها، أقنعي عمّار واحكِ له ما حدث...

● ابتسام : ألف شكر، يبدو أنه طبيب تقيّ مميز، كل شيء في هذه الحياة يحدث لسبب...

اقتنعت السيدة ابتسام بعمق فكرة مراجعة الطبيب النفسي، كأنّ تلك اللحظة كانت نداءً خافتاً من القدر يمرّ عبر خيوط القدر الدقيقة. قالت في سرّها بحسرة وامتنان :

(لقد كنت في الحج، في حينها تعرّفت نيل على علّام... ربما الله أرسل هذا الحادث كإشارة، فتفتح الأبواب على يدي الدكتورة نيل، لتكون نوراً في ظلامنا.)

لكن إقناع عمار بالذهاب معها إلى عيادة طبيب نفسي كان تحدياً من نوع آخر؛ في شرق هذا العالم، حيث تصطدم الثقافة وأحكام المجتمع مع مناهج العلاج النفسي، يبدو الأمر كتعلم لغة غريبة لا تملأ إلا فراغات الخوف والشك.

دخلت ابتسام إلى غرفة عمار، فوجدته منهمكاً في حل مسائل رياضية معقدة، وهو الأمر الذي أدهشها، فابنها الذي كان يعاني من نفور دائم من الدراسة، ها هو اليوم يغوص في الأرقام بلا كلل ولا ملل. همست في نفسها بامتنان ورضا :

(الحمد لله، يا من تخلق مع العسر يسراً...)

اقتربت منه برقة، وربّتت على كتفه بحنان الأم التي ترى بارقة أمل تلوح في عيون ابنه ا:

● ابتسام : يا ابني، ما رأيك أن نذهب لنرى طبيباً يفهم ما قد أصاب دماغك بعد ذلك الرضّ المؤلم ؟

و لدهشة الأم وطمأنينتها، أجابها عمار بصوت خافت يحمل بصيص إدراك جديد:

○ عمار : أماه ، تخيلي كنت أفكر في ليلة الحادثة أنني مصاب بالاكتئاب، لكن الآن أشعر أن وضعي أعمق وأعقد. سمعتك تسألين الدكتورة نيل عن طبيب نفسي، ولا أمانع، بل أرحب، لأن الفيلم الذي شاهدته مؤخراً علمني الكثير عن الطب النفسي... ربما حان وقت أن أفهم نفسي جيداً.

احتضنته ابتسام بقوة، غمرت دموعها قلبها، وبدأت بالدعاء في صمتٍ ممزوج بالبكاء، وكأنها تزرع بذور الأمل في أرض قاحلة، تنتظر أن تُنبت زهرة حياة جديدة، تنبثق من رحم الألم لتُزهر في سماء السلام.

****

عندما دخل عمّار عيادة الطبيب النفسي علّام همام، كان في قلبه ثقل لا يُحس به إلا من عاش تحت وطأة وصمة اجتماعية، وعالم ملغوم بالتحامل على من يطلب العون النفسي. هذا الشاب الذي نما في بيئة صاخبة تعج بالصراعات العائلية والأفكار الجامدة، حمل داخله شظايا ألمٍ وصراع لم يعرف كيف يعبّر عنه سوى بالصراخ والخوف والتمرد. لكن في تلك اللحظة، وبينما كانت يد الطبيب علّام تمتد إليه بحرارة، تفتح له باب إلى عالم مختلف، عالم لا يقف عند حدود الأحكام، عالم لا يعرف إلا

القبول والتفهّم.

كان الترحيب الذي لم يحمل أي حكم أو عتاب بمثابة نافذة رحبة فتحت أمامه، نافذة تشهد على أن هذه العيادة ليست مجرد مكان لتلقي العلاج، بل فضاء حيوي يحتضن الروح ويعطيها فرصة جديدة. احتضن علام همومه ووجعه، دون أن يقلل من قيمته أو يحكم على ضعفه، بل بالعكس، منح له شعورًا عميقًا بالقبول والاعتراف بإنسانيته. كل كلمة هادئة، وكل نظرة متفهمة، كانت كسلالم تساعده على النزول إلى أعماق ذاته واكتشاف ما كان مخفيًا في زوايا النفس.

و لم يكن علّام مجرد طبيب نفسي، بل كان جزءًا من نسيج رحمة أعمق ، فقد كان بذاته المرجعية الكبرى لتلميذه النجيب الطبيب النفسي هاني، الذي تجسّد في ذهن عمّار بصورته من خلال الفيلم الذي شاهده وأثر فيه كثيرًا. كان هاني ذلك الطبيب الذي لم يعالج الجسد فقط، بل غرس في النفوس بذور الأمل، ذاك الطبيب الذي جعل من صراعات الطفولة والضعف بدايات لقوى خارقة، من خلال فهم عميق للنفس البشرية.

في حضور علّام، الذي اورث حكمته لهاني ، وجد عمّار السلام الذي طالما انتظره. لم تكن الجلسة مجرد كلمات بين مريض وطبيب، بل كانت سيمفونية عذبة تعزف على أوتار القلب، تحرر الروح من قيود الخوف والعار، وتمنحها مفتاحًا لفهم ذاتها، والتصالح معها. تحدث عمّار عن مخاوفه وألمه، وعن ذلك العالم الداخلي الذي صار يبدو له كمتاهة معقدة. وبينما كان يفتح بوابة قلبه للنور، شعر بثقة تتصاعد، كما لو أن هاني، عبر مرآة علّام، كان يهمس له: (أنت أقوى مما تظن، والقصة لم تنتهِ بعد.)

وهكذا، في تلك العيادة الصغيرة، لم يبدأ عمّار رحلة العلاج الجسدي فقط، بل بدأ رحلة أعظم : رحلة اكتشاف الذات، رحلة تحوّل الألم إلى

قوة، والضعف إلى مصدر إلهام. وكان الطبيب هاني، رغم بعده الجغرافي، حاضرًا في كل كلمة نصح بها علّام، وفي كل نظرة رحمة وإيمان أعطاها. إن استمرار هاني في العمل والتأثير، رغم معاناته الخاصة، كان بمثابة نور في نفق عمّار، يذكره دومًا بأن الشفاء الحقيقي يبدأ من الداخل، وأن الإرادة والثقة بالنفس هما سلاحا الانتصار في هذه الحرب الصامتة.

● علّام : أجدت وأصبت السيروتونين كان ناقصاً عندك، وهذا كان من أسباب الاكتئاب، لكن نوبات عدم النوم، الانفعالات الزائدة عن حدها، الاندفاعية، نوبات التصرفات الصبيانية غير المسؤولة، الغضب على أتفه الأسباب والهوس بالأفلام الإباحية، كل هذه الأعراض بالتناوب مع نوبات الاكتئاب التي أجدت وصفها يا بني، تضعنا تحت مظلة ثنائي القطب.

○ عمار : ثنائي القطب ؟

● علّام : أجل من أشيع الأمراض النفسية، وأكثرها انتشاراً.. ثنائي القطب ببساطة اضطراب نفسي يتأرجح بين نوبات من الاكتئاب ونوبات من الهوس، هو في حاجة إلى علاج ، ليس عاراً ولا عيباً أن تكون مريضاً.. العار والعيب ألا تعترف بمرضك وألا تطلب العلاج، هل تعرف الممثلة ناهد إحسان ؟

○ عمار : طبعاً، أحب ثقتها بنفسها كثيراً..

● علّام : في إحدى مقابلاتها تحدثت عن مرضها ثنائي القطب، وكيف ساعدها العلاج في كسب حياتها، رجائي إليك أن تشاهد هذه المقابلة...

○ عمار : أعدك.. وهل هذا سبب رؤيتي للأشياء بطريقة مختلفة ؟

● علّام : لا.. هذا موضوع آخر، أشك يا بنيّ بإصابتك بما يدعى **متلازمة الموهوب أو سافانت** بعد حادث الضرب الذي تعرضت له.هذه المتلازمة ترافق غالباً مرض التوحد كحال ابني نسيم الموهوب بالرسم

و الاستبصار ، لكنها قد ترافق الأذيات الدماغية الشديدة حيث تدخل مناطق دماغية جديدة في الخدمة، مناطق لم تكن تعمل من قبل فيصبح الشخص نابغة في مجال ما، وهذا سبب بداية ولعك بالرياضيات يا بني، القادم من الأيام سيوضح الحقيقة أكثر، فأكثر.. أعراض الوسواس القسري التي تعاني منها، ستتراجع مع الزمن، وبمساعدة هذا الدواء...

وصف الطبيب علّام دوائين لعمار، شرح له بدقة عن آلية عملهما، ثم أضاف :

● علّام : أذكّرك أيها الشجاع، أنّ كثيراً من الأدوية النفسية - ومنها هذه - تحتاج إلى فترة زمنية لا تقل عن ستة أسابيع لتعمل بشكل جيد، لا يوجد عصا سحرية، بل يوجد قلوب مؤمنة... سعيد جداً بالتعرف على بطل مثلك، موعدنا القادم بعد شهر.

في الحقيقة، فكر عمّار كثيراً ألّا يأخذ الأدوية النفسية..

- سأصبح مجنوناً، وستؤثر الأدوية على عقلي ..

قال في نفسه...

لكنه تذكر وعده للبروفسور علّام، بأن يبحث في شبكة الانترنت عن مشاهير مصابين بثنائي القطب، وأن يقرأ عنه.. بحث أولاً عن مقابلة الفنانة ناهد إحسان، والتي تحدثت فيها عن ثنائي القطب..

مما ذكرته ناهد في المقابلة :

- المرض اللعين كاد يفتك بي أكثر من مرض الذئبة الحمامية الجهازية بحد ذاتها.. أخبرتني طبيبة رائعة مختصة بالطب النفسي الجسدي دكتور غاردينيا الأبيض أن الذئبة قد تكون سبب ثنائي القطب خاصتي، لكن العلم لم يعرف دهاليز المرضين بعد، هكذا وضعتني على علاج غيّر

حياتي، وجعلني مطمئنة وناجحة بينكم اليوم... ثنائي القطب بجناحيه، جعل مني فراشة حقيقية، كاد عمري يقصر كمن سبقني تحت مظلة هذا المرض، لكن لا وألف لا.. لن أسمح لوصمة العار تجاه الأمراض النفسية بتدمير حياتي.

بحث عمّار لأيام، ثم قرر أن يجرّب الأدوية :

- لم لا ؟

بالفعل مع مرور الأيام، بدأ عمار يخطو بخطوات ثابتة نحو استعادة صحته النفسية، وكأن ظلمة الغيم بدأت تنجلي تدريجيًا عن سماء روحه، ليطل منه نور الحكمة والصفاء. تحققت كلمات البروفسور علّام التي تحدث فيها عن متلازمة سافانت، تلك القدرات الخارقة التي تظهر في حالات معينة رغم المعاناة، فقد انتفض شغف عمار بالرياضيات وازداد إقباله عليها كمن يكتشف عالماً جديداً لم يكن يعرفه من قبل. صار يستوعب المعلومات بسرعة فائقة، وكأنه يعيد ترتيب أفكاره بعقل جديد، يركض عبر الأرقام والرموز كأنها ألحان موسيقية يعزفها ببراعة فذة، وبعد أشهر من الممارسة والتدريب، تحوّل من طالب يكافح ويعاني كي ينجح إلى نابغة حقيقي في الرياضيات، مدهشًا من حوله، وهو الذي كان في السابق يعاني من الرسوب المتكرر في تلك المادة.

تغيّر عمار لم يقتصر على الجانب الذهني فحسب، بل امتد ليصل إلى أعماق نفسه ومشاعره. فقد أتى دواء ثنائي القطب كعاصفة هادئة تهدئ عواصفه الداخلية، منحته القدرة على السيطرة على انفعالاته التي كانت تسيطر عليه سنوات طويلة، سنوات أضاعها وهو كمن يسبح في بحر من القلق والغضب بلا سفينة ولا شراع. مع العلاج، تغيّرت طريقة تعامله مع والدته، التي كانت هي الأخرى تحمل عبء الخلافات، وأيضًا تغيرت علاقته بالعالم من حوله، فتبددت الضبابية وأخذت الطمأنينة

تعشش في قلبه وروحه، وحين يعود الإنسان مطمئنًا، يكون قد استعاد أكثر ما يحتاج إليه في هذه الحياة.

هكذا اكتشف عمار في نفسه موهبة وهبة جديدة في الحياة، كأن عقلًا مستيقظًا ينبض في داخله، يفتح له أبوابًا لم تكن مرئية من قبل. تعجبت أمه، ووقفت عند هذا التغيير العميق، وقالت له :

(يا بني، لقد أنار الله بصيرتك، فاحمده واشكره، فبالشكر تدوم النعم.)

كانت تدرك في أعماقها كيف أن الله رتب الأسباب، فجعل من لقاء الدكتورة نيل والطبيب علّام نقطة تحوّل حاسمة، تذكّرت مقولة قديمة، **إن مع العسر يسرا** ، فتلك النعمة التي أتيحت لعمار اليوم كانت وليدة ألم ومحن، فسبحان من يختار لنا أحسن الطرق رغم ظلمات الطريق.

جاوبها عمار مؤيداً :

(معك حق يا أمي، مع أن العلم أسماها متلازمة سافانت، وأسماه ثنائي القطب، لا أستطيع إلا أن أراهما رحمة من رب العالمين...)

وهكذا، بزغ فجر جديد في حياة الشاب الذي بدأ يستعيد ليس فقط صحته، بل ذاته وقوته الداخلية، ليواصل رحلته نحو المستقبل بعقل متوقد وروح متجددة، متسلحًا بحكمة لا تأتي إلا من الألم والصبر.

****

بعد سنوات من المثابرة والتحدي، تخرج عمار من كلية الرياضيات في الجامعة بتفوق باهر، كأنه يُعلن للعالم أن الألم ليس عائقًا بل منصة انطلاق. واصل طريقه المكلل بالعزيمة، حتى نال درجة الدكتوراه،

مكرسًا كل وقته وجهده للبحث العلمي في الرياضيات. ثم حزم حقائبه وهاجر إلى أمريكا، حيث وجد بيته العلمي الجديد، محاطًا بزملاء وباحثين من مختلف أنحاء العالم، ولكن قلبه ظل نابضًا بقصة صراعه مع نفسه ومع المرض، قصة ألهمته وأثرت في مشاريعه.

وفي هذا المشهد المهيب، استطاع عمار أن يحل لغزًا رياضيًا قديمًا ظل يحير العلماء على مدار قرون، معضلة لم يستطع أحد تجاوزها، و أطلق عليها اسم **ثنائي قطب سافانت** ، تخليدًا لحالته المرضية التي شكلت نقطة التحول الكبرى في حياته. أصبح هذا اللقب علامة بارزة في مسيرته، رمزًا لانتصار العقل والروح معًا على المعاناة.

لكن، إلى جانب أبحاثه العلمية العميقة، كان لعمار جانبٌ آخر من التعبير الفني الغريب والجميل. نشأت لديه هواية الرسم بطريقة فريدة، تتناغم مع أساليب فنانين كبار مثل بيكاسو و براك، حيث رسم الشخصيات كأشكال هندسية مركبة، تكسر القوالب التقليدية، لتتحدى المألوف وتحوّل الألم إلى جمال مدهش.

أقام عمار معرضًا خاصًا لرسوماته الغريبة والمذهلة، جسد فيه وجوه أهم المشاهير الذين اجتاحهم المرض النفسي، منعهم من مواصلة رسالتهم الفنية أو العلمية، لكنه عبر فنه أعادهم للحياة، ونقل قصصهم بصور تختزل الألم، العظمة، والانكسار في آنٍ واحد. كان يقول في صمت : لو أن الطب النفسي في زمنهم قد تقدم كما هو اليوم، لرأينا مزيدًا من الإبداع ينبثق من نفوسهم المتألمة.

تحت كل لوحة من لوحاته كتب نبذةً موجزة عن صاحب الصورة، قصصًا قصيرة ملهمة، تضيء على رحلاتهم، على صراعاتهم، وعلى الأثر العميق الذي تركوه في العالم، رغم الألم الذي عاشوه. كانت

لوحات عمار ليست مجرد فن، بل شهادة حب ورحمة وإنسانية عميقة لكل من يكافح في صمت.

● **فريدا كاللو** : هي واحدة من أشهر الرسامين في المكسيك وفي العالم كله، رغم أنها عانت من مرض شلل الأطفال، ولكنها تحدت مرضها الجسدي وحققت نجاحًا كبيرًا، لكن يقال أن ثنائي القطب غير المعالج تمكن منها، فخسرناها وهي في الأربعينيات...

● **بتهوفن** : صاحب السمفونيات الخالدة، كان مصاباً بنوع من أنواع ثنائي القطب الخفيفة، ربما هي ما يسمى اليوم **بدوروية المزاج Cyclothymia**، لو أنه تعالج، ربما لما أدمن الكحول كنوع من المعالجة الذاتية، وبالتالي لم يمت بتشمع الكبد بسبب الكحول، ولكسبنا موسيقاه لمدة أطول...

● **إرنست همنغواي** : الروائي المبدع، أيضاً كان مصاباً بثائي القطب، لم يتعالج مما تسبب له بكثير من الأذى في حياته، ثم الانتحار أيضاً...

● **فينسنت فان خوخ** : الرسام العبقري، كان في الغالب مصاباً بثنائي القطب، وبسبب عدم العلاج، خسرناه مبكراً في ثلاثينياته...

أما اللوحة الأخيرة في معرض عمار، فقد كانت تحفة مؤثرة تُخلّد صورة الممثلة المصرية ناهد إحسان، التي لقبت بفراشة الشاشة، تلك المرأة التي تحدّت مصيرها منذ شبابها حينما ألمّ بها داء الذئبة الحمامية الجهازية (**Systemic Lupus Erythematosus**)، وهو المرض الذي رسم على وجهها طفحًا جلديًا يشبه جناحي فراشة، علامة بادية على صراع جسدها المتعب.

كان عمار، الذي وجد في قصة ناهد شعلة أمل لا تنطفئ، من أشد المعجبين بها وممتنا لشجاعتها، فقد كانت قوتها وكفاحها في مواجهة الألمين النفسي والجسدي منارة أنارت له طريق تقبل العلاج والتعايش

مع مرضه، ومنحت روحه زخماً جديداً للتحدي.

في تلك الأيام، تعرضت والدته ابتسام لصداع عنيف لم يكن كأي صداع عادي، ألم قاطع وممزق حول عينها اليمنى، يصاحبه سيلان للدمع من عينها وأنفها، ألم يخترقها كرمح لا يرحم. وبعد زيارتها للطبيب، جاءت التشخيص الصادم : **صداع عنقودي**، ذلك العذاب الذي يختبره الإنسان في أقصى حدود الألم، نوبات سنوية قاتلة تصيب الرجال غالبًا، لكن القدر شاء أن تكون ابتسام من المستضعفين، حيث جاء مرضها كعبء إضافي لألم نفسي طالما حملته في قلبها.

في تلك الفترة المضطربة، وبين هموم المرض والألم، تعرف عمار في أحد مقاهي مدينة لوس أنجلوس على صديق جديد يحمل في نفسه النقيض التام لحالة والدته، شاب لا يعرف معنى الألم أبداً، لم تجتاح روحه عاصفة الحزن، ولا حمل قلبه ثقل الأسى، كأنه ولد من نهر من السعادة والطمأنينة كما توهم عمار..

كانت صداقته مع هذا الصديق الجديد بمثابة نافذة جديدة لعمار، تلقت روحه صفاءً وسكينة، وفتحت أمامه آفاقًا أرحب ليعيد النظر في ذاته، في حياته، وفي معنى الألم والفرح، بين عوالم متناقضة لكنه يسعى لجسرها بقوة الإيمان والوعي، مسترشداً بذاكرة أمه وجهادها في مواجهة المعاناة.

****

يغيّرنا الألم كما تغيّرنا العاصفة حين تمرّ على شجرة، لا تقتلها لكنها تتركها تميل، تنحني، وتغير شكلها إلى الأبد.

الألم النفسي ؟

هو الأعمق أثرًا...

هو الريح التي لا تُرى، لكنها تهدم بيوتًا من الداخل.

قبل أن نعرف وجع الجسد، نختبر وجع الروح...

تلك الانحناءات الخفية في الداخل، تلك الشروخ الصغيرة التي لا تُرى بالعين المجردة، لكنها تُسمع حين نصمت طويلًا، حين تتهدج كلماتنا دون سبب، حين نضحك أكثر من اللازم، أو لا نضحك أبدًا.

الألم النفسي يُعيد تشكيل الإنسان كما يعيد النحت شكل الصخرة، يجرّده من زيفه، من قناعه، من وهمه القديم عن نفسه، ويُرغمه على أن يرى وجهه الحقيقي في مرآة الوجع.

لكن... ما الذي يغيرنا حقًا ؟

ليس الألم وحده، بل أيضاً علاجه.

الطريق نحو الشفاء، هو أشبه برحلة حج داخلي، لا يقطعها إلا من تجرأ على النظر في عينيه في العتمة، واعترف بخوفه وضعفه وانكساره، لا ليغرق فيها... بل ليحملها كتاج.

نحن كائنات متغيرة، لا لأننا ضعفاء، بل لأن الله خلقنا نُجّار أنفسنا... كل يوم نعيد ترتيب أخشابنا الداخلية، نرقّع الشروخ، نزيل ما تعفّن، ونحفر ملامح جديدة للغد.

المحظوظ في هذا العالم ليس من نجا من الألم، بل من استثمره.

المؤمن الذي لا يكتفي بأن يقول : **الحمد لله** ، بل يمضي ليقول : **اللهم دلّني على الدواء، فقد علمت أنك أنزلت لكل داءٍ دواء** ، ثم يفتّش، ويتعلم، ويقرأ، ويطرق باب الطب النفسي والعلاج، لا خجلاً، بل يقينًا، أن الشفاء ليس إلا وجهًا آخر للإيمان.

المؤمن الصادق...

هو من جمع بين نور السماء ونور العلم، ووقف في قلب عاصفته كالناجي الوحيد، لا ينتظر أن تمرّ، بل يبني مأوى لنفسه داخلها.

– أين كان الألم في كرة أمبادوقليس ؟

– في الحب... وفي الكره.

هكذا كانت الحياة منذ البدء:

قوتان تتجاذبان النفس البشرية...

حب يوحّدنا حتى نذوب، وكره يفرّقنا حتى نتلاشى.

والألم، في المنتصف، يُشبه تلك النقطة في مركز الكرة، حيث لا ضوء ولا ظل، لا صراخ ولا هدوء... فقط الصمت، صمت المعاناة الذي يسبق اليقظة.

لكننا – نحن البشر – لا نُخلق لنموت في المنتصف، بل لنتجاوز، لنتعلّم كيف نحول هذا الألم إلى حكمة، ونحول الحكمة إلى شفاء.

فالحكمة، كما تقول السماء، ليست أن تعرف، بل أن تفهم، أن تغفر، أن تتغير... ثم تغير غيرك.

الألم حارس الحياة

القوة الحقيقية لا تُقاس بعضلات اللسان ولا بانتصارات مؤقتة على الآخرين، بل تُقاس بثقة خفية تسكن الأعماق، ثقة لا تصرخ، بل تهمس للروح: "أنا هنا، أعرف من أكون، وأتقبل ذلك".

الثقة بالنفس ليست صراخًا على قارعة الحياة، وليست قناعًا من الكبرياء المزيف يُخفي وجعًا قديماً. إنها حالة وجودية من التصالح، مع ما هو تحت السطح، مع البركان الذي يسكن اللاوعي، مع الرضوض النفسية التي لم تجد لنفسها متّسعًا للبوح، ولا ملجأ للاحتواء.

الثقة بالنفس ليست غرورًا يرفع صاحبه فوق السحاب ليتهشم عند أول صدمة، وليست سقف توقعات شاهق يُسقطك عند أول عثرة.

إنها التصالح العميق مع من كنت، ومن أصبحت، ومع المسافة الشاسعة بينهما. إنها القبول... لا بالضعف، بل بحقيقة الضعف، والرغبة في تجاوزه، لا إنكاره.

كثيرًا ما يُساء فهم النرجسية على أنها ثقة، لكن النرجسي ليس واثقًا، بل مرعوب. الأنا عنده أشبه بزجاج هش، يلمع ظاهريًا، لكنه يتشظى عند أول لمسة.

يخاف النرجسيّ أن ينكسر، لذلك يهاجم كل من يقترب، يظن أن احترام الآخرين له ضرورة وجودية لا كمالية، لكن الحقيقة أن الاحترام ينبع أولًا من الداخل.

حين تحترم ذاتك بصدق، لا تخشى النقد، ولا تستميت لتثبت شيئًا.

الاحترام الذاتي هو الغلاف الجويّ للأنا، يحميها من السقوط، من الاشتعال، من الانفجار الداخلي.

الناس يتوهون، لا لأن الطريق مظلم، بل لأنهم لا يعرفون ما يريدون.

أن تعرف ما تريد، أن تمسك بخيط دقيق من الحلم وتتبعه، أن تمشي بهدوء لا بقهر، بثقة لا بتحدٍ، هذا هو جوهر الحياة.

أن تمضي نحو حلمك لأنك تريده، لا لأنك تريد أن تثبت لأحدهم أنك تستحق، عندها فقط، تضع القلم على معاهدة الصلح مع نفسك.

صلح لا هدنة، مصالحة لا مشروطة، لا مشروطة بالماضي، ولا بالمستقبل.

أن تقول لنفسك:

نعم، تألمت، لكنني هنا ..

نعم، سقطت، لكنني أنظر الآن إلى الأعلى بعينين صافيتي ..

لكن حذارِ... ليس كل ألم يُمكن تحويله إلى أمل.

مع تشابه الحروف، تختلف الأقدار.

ليس كل من سقط، نهض مجددًا، وليس كل من نهض، أصبح حرًا.

بعض الآلام، كما قال أحد الحكماء، خُلقت فقط لتعلّمنا الصبر، لا لتصنع منا أبطالاً.

وفي قاعة الدرس، في قلب حرم الجامعة، كانت الطبيبة غاردينيا الأبيض تظهر من خلال الشاشة، تبثّ دروسها عبر الفضاء الرقمي، بكلمات تُشبه نسيمًا يمرّ فوق ندوب القلب.

غاردينيا التي فهمت اللاوعي كما يفهم العاشق نَفَس حبيبته، والتي زرعت في طلابها فكرة لم تكن تقال بهذه السهولة من قبل :

الفكرة ليست ما نعتقده، بل ما تقودنا إليه مشاعرنا.

الفكرة تولد من الصراع، تتنفس من التناقض، وتكبر حين تلامس جدارًا

داخلنا لم نعلم بوجوده«.

وهناك، في الصف الأول، جلس الطبيب علّام، يُنصت بكل جوارحه، لا لأنه لا يعرف، بل لأنه يؤمن أن العلم، كما الحياة، لا يتوقف.

عينا علّام تلتمعان، ليس بوهج المعرفة فقط، بل بشغف من ذاق طعم الألم، وقرر أن يكون جسرًا بين العلم والنفس، بين الحقيقة والخلاص.

****

في إحدى زوايا حيّ إيكو بارك بلوس أنجلوس، حيث تتداخل الألوان بين خضرة أشجار النخيل وأصص الصبّار الصغيرة على النوافذ، وفي مقهى صغير ذي نوافذ زجاجية عريضة تطلّ على شارع نابض بالحياة، كان عمّار يجلس عند طاولة خشبية غير متناسقة الأرجل، تستند قليلاً نحو اليمين، كأنها بدورها تُحاول أن تحافظ على توازن ما، تماماً مثل زبائنها.

كان المقهى اسمه **قهوة الحالمين** ، وهو اسم لم يأتِ اعتباطاً، إذ امتلأت جدرانه بلوحات فنية من مدارس مختلفة : واحدة تكعيبية، تُشبه أسلوب عمار الجديد، وأخرى انطباعية فيها حنين، وثالثة سريالية كأنها رسمت خلال حلمٍ لم ينتهِ بعد.

الطاولات فيه متفرقة، لا تنصاع لنظام صارم، بعضها خشبيٌّ قديم، وبعضها من معدن رقيق، والكراسي لا تتطابق أيضاً، تماماً كأنها تعكس أفكار الزبائن المتباينة.

الضوء يتسلل من خلال الستائر القماشية بنقوشٍ لاتينية، وينعكس على الأرضية الإسمنتية الرمادية، محدثاً تدرجات من النور والظل على البلاطات ذات الأشكال السداسية.

في هذا الجو الذي يُشبه حلمًا شاحب الألوان، كان عمّار يجلس وحده،

شارداً في صفحات دفتر رسوماته، يرسم وجهاً جديداً لشخصية يظنها من ضحايا الوصمة النفسية.

ملامحه صارت أكثر نضجاً من ذي قبل، لحية خفيفة تهذّبت على نحو مهملٍ أنيق، حاجبان معقودان فوق عينين فيهما ما يشبه السكينة بعد عاصفة. يداه، ورغم هدوئهما الظاهري، كانتا تمسكان القلم بخفة فيها توتر الفنان، أو ربما الطبيب الذي لا يزال يعالج نفسه بالرسم.

إلى جواره، كان الكرسيّ الجلديّ ذا المسند المهترئ شاغراً، حتى اقترب منه رجل في نهاية الثلاثينات من عمره، بشعر أسود كثيف يسرّحه للخلف بطريقة متقنة، بشرته السمراء تحمل آثار شمس الأندلس القديمة، وخطوط وجهه تروي حكايات مدنٍ لا تذكرها الخرائط.

جلس بثقة مَن يعرف هذا المكان جيداً، أخرج من جيبه نظارة قراءة صغيرة ذات إطار معدني رفيع، ووضعها على طرف أنفه وهو يتفحّص قائمة المشروبات.

كان يرتدي قميصاً قطنيًا بألوان داكنة تُشبه ليالي غرناطة، وساعة جلدية قديمة الطراز تلفّ معصمه بلطف.

نادى النادل الذي يعرفه باسمه، وطلب فنجان قهوة إسبريسو دون سكر، ثم التفت إلى عمّار، وصوته يحمل لكنة إسبانية ناعمة :

- خوليو : لا أريد أن أزعجك ، لكن أهذا الذي ترسمه وجه ؟

كان صوته دافئًا، مثل نبرة شخص جرب الحياة من زواياها العشر، وسقط ثم نهض، وربما لا يزال ينهض.

رفع عمّار بصره ببطء، كأن شيئاً في هذا الصوت أيقظه من عزلته، التقت العيون، وتلاقت روحان في لحظة صامتة، كأن اللقاء كُتب منذ

زمن بعيد، بين رجلٍ يعالج جراح الروح بالألوان، وآخر ربما يحمل قصة لم تُروَ بعد.

● الشاب : مرحباً، أنا خوليو..

○ عمار : أهلاً أنا عمار.. بالفعل إنه وجه بانتظار الاكتمال ..

● خوليو : هذا المقهى يرتاده المشاهير، فما أنت مشهور به ؟

○ عمار : قالوا لي هذا، أرتاد المكان في محاولتي لرؤية أشخاص مشاهير، فأرسمهم.. أما أنا، فعالم رياضيات، قمت بحلّ معضلة رياضية حيرت العالم لقرون...

● خوليو : أجل سمعت عنك وعنها، مسألة ثنائي القطب سافانت...

ابتسم عمار بتواضع:

○ عمار : تماماً، وماذا عنك ، ما وجه شهرتك ؟

● خوليو : شهرتي هي بسبب ضعفي، وضعي الصحي جعلني مادة مفضلة للصحافة، فأنا مصاب بحالة تصيب واحد من ملايين الأشخاص في العالم.

○ عمار مندهشاً : وماهي هذه الحالة النادرة ؟

● خوليو : **متلازمة عدم الشعور بالألم CIP Congenital Insensitivity to Pain** ..

أنا لا أعرف معنى الألم الجسدي، فقط توصيف الناس الطبيعيين له...

○ عمار: ياه، كم أنت محظوظ، الألم أمر سيء جداً، أنت مرتاح للغاية منه، أمي مصابة بالصداع العنقودي وهو من أشد أشكال الألم.. مستعد لدفع كل ما أملك كي تتخلص من شعورها بهذا الألم العميق...

تنهد خوليو تنهيدة ملؤها الألم وقال على نحو مفاجئ :

● خوليو : أنا مستعد لدفع المليارات، كي أكون مكان أمك...

○ عمار مندهشاً : تحب أن تشعر بالألم ؟ لماذا ؟

● خوليو: الألم هو حارس الحياة، هو المنبه الذي ينذرك بوجود خطر يهدد حياتك ووجودك، لتتجنبه وتتفاداه، فتبقى على قيد الحياة.. هو بمثابة شرطي المرور الذي ينظم السير وبدونه تكثر الحوادث في كل مكان...

هل تعرف سيد عمار ما الذي أفعله كل يوم قبل أن أنام ؟

هز عمار رأسه نافياً، فتابع خوليو:

● خوليو: أقوم بعدّ أسناني وتفقدها واحداً تلو الآخر لمعرفة إن سقط أو تسوس أحدها، أفحص كامل جلد جسمي لتحريّ وجود حروق، جروح، أو رضوض.. أتأكد من سلامة كامل مفاصلي، أحركها واحداً واحداً بحثاً عن خلوع، فكل أذى قد يحدث دون أن أشعر...

○ عمار : ياه كل يو م؟

● خوليو : أجل.. هل سمعت من قبل عن شخص يدعى **باتريس أبيل** Patrice Abel؟

○ عمار : لا...

● خوليو : هو أب لطفلتين، لكن ليس كأيّ أب... بل أشبه بعدّاء يركض لا ليتجاوز خطّ النهاية، بل ليمنع الألم من أن يلحق بأجنحة صغيرتيه.

ركض، لا في شوارع المدن فحسب، بل في قلب الزمن والجهل والوصمة، قطع مسافات تعادل تسعين ماراثونًا في أقل من أربعة أشهر. لا بدافع الشهرة، ولا لهوس الفوز... بل ليجعل العالم يلتفت، ولو للحظة،

إلى تلك المتلازمة النادرة (عدم الإحساس الخلقي بالألم) صمت موجع، وجراح بلا بكاء، وكسور بلا صراخ.

أما أنا، فلم أركض. كنت الساكن في بيتٍ زجاجيّ، طفلًا تربّى ضمن فقاعة حماية، وكأن الحياة كلها مسرحٌ مغطى بالقطن.

منعت من اللعب، لأن السقوط قد لا يُشعرني بالألم، لكنه قد يفتك بجسدي منعت من استخدام الأدوات الحادة، لأن نزفًا قد يحدث دون أن أشعر، فيخونني جسدي كما خان غيري في صمت.. منعت حتى من الاستحمام وحدي، كأن الماء قد يخفي تحت دفئه كارثة لا ألم يُنذر بها.

تضاءلت المضاعفات الجسدية، نعم، هذا صحيح... لكن هناك شيء لم يُحسب له حساب : الألم النفسي .. ذلك الكائن الخفيّ، الذي لا يُرى في صور الأشعة، ولا يُحقن له مسكّن، ولا يتوقف عند حدود الحماية.

كنت محاصرًا بجدران من قطن، لكن روحي كانت مكشوفة لعواصف صامتة، تنهش ولا تترك أثرًا واضحًا، إلا في نظراتي، في وحدتي، في خوفي من أن أكون مختلفًا... ناقصًا.

وها أنا، رجلٌ يحمل بقايا طفل لم يعرف الألم الجسدي يومًا، لكنه حمل فوق كتفيه جبالًا من الألم النفسي، دون أن يجرؤ على البكاء أمام مرآته.

هل تعلم ؟

لو كنتُ يومًا من يُسمّي الأمراض، لاخترت لهذا الاسم الطويل البارد الذي وضعه الأطباء، اسمًا جديدًا يليق بالحقيقة :

(متلازمة الألم النفسي الشديد مع انعدام الإحساس الجسدي)

لأن الصمت لا يعني السلام، كما أن غياب الألم لا يعني الغفران...ولأن من لا يشعر بالجراح في جسده، قد يغرق بأشواك لا تُرى، ولا تُشفى، في روحه ..

- عمار : هذا مؤلم جداً.. آسف لسماع ذلك...

● خوليو : أجل.. الألم الجسدي مكروه، لكنه هام ولا غنى عنه .. ليس من أجل النجاة من العوامل والمواد الضارة فحسب، بل لأن هنالك ارتباط وثيق بين الألم والإدراك.. كلما زاد الألم، نضج الوعي ونمى الإدراك... صحيح أن المصاب بمتلازمة عدم الإحساس بالألم، يبدو كالأبطال الخارقين، يقتحم الموت دون خشية أو خوف، لكن بالمقابل، فإن فرص نجاته في هذه المعركة ضئيلة للغاية والمنتصر فيها هو الموت غالباً.. صراع اللاوعي مع الألم النفسي، موضوع آخر تماماً.. معقد أكثر، لولا طبيبي النفسي، لما كنت أحدثك الآن...

○ عمار : كم أنت قوي يا رجل.. هنالك قصيدة لشاعرعربي مشهور اسمه **نزار قباني** يقول فيها :

لم أعرف أبداً أن الدمع هو الإنسان

أن الإنسان بلا حزن ذكرى إنسان

الحزن والألم النفسي قبل الجسدي، يتشابهان في كونهما ضرورة للحصول على الحكمة... مع أنك لا زلت تعاني من مرضك الجسدي، لكنك انتصرت على مرضك النفسي.

● ابتسم خوليو بامتنان : شكراً لك.. الشعر الذي قلته جميل.. فعلاً لا يمكن التمتع بالراحة إن لم تذق مرارة الألم، ولا أن تشعر بنعمة الصحة إلا بعد تجريب المرض... القلق هو سرطان الجهاز المناعي الأول، كلما كثرت خلايا الخوف، أكلت الجهاز المناعي أكثر.. لا يقتل الجهاز المناعي شيء كالقلق، يقتله بثبات وتدريجياً حتى يقضي عليه، وأنا في حاجة جهازي المناعي جداً، الألم غائب فلا حاجز أول ضد الجراثيم وغيرها من العوامل الممرضة.. لهذا أحرص على زيارة طبيبي النفسي، علاج القلق كان سبب استمرار صحة جهاز المناعة لديّ، وبالتالي استمراري في محاربة المرض الجسدي ..

كثير من المرضى انتهت حياتهم بالانتحار بسبب الألم النفسي العميق والقلق غير المعالج الذي يعيشونه بسبب حالتهم.

- عمار : وصلتني وجهة نظرك بدقة و كفاية، بالفعل كما قلت:

(الألم حارس الحياة ، الحمد لله على نعمة الألم.)

في طريقه إلى والدته، تمهيدًا لتقبيل يديها، لم تكن خطوات عمّار عادية... كانت كل خطوة بمثابة صلاة، وكل نفس يعلو صدره كأنه تنهيدة امتنان عميقة، لشيء ما تغيّر داخله، شيء ولد من رحم الألم، لا ليصرخ، بل ليُبصر.

اقترب من الباب الذي طالما مرّ بجانبه مهرولًا، غاضبًا أو غافلًا، و وقف لحظة يتأمل جسد البيت القديم، كأنه يراه للمرة الأولى. هناك، خلف ذلك الباب، امرأة صلّت لسنوات كي لا يُقهر قلب ابنها، حتى لو كان قلبًا لا يشعر بالألم الجسدي، لكنه مثقل بجراح لا تُرى.

في تلك اللحظة، وبين عتبة الفعل والتفكير، قال عمّار في نفسه :

(لألم الجسدي نعمة، لأنه كجرس إنذار... يخبرنا أن هناك ما يجب أن يُرمم. والألم النفسي؟ هو الجرس الخفيّ، الأكثر نبلاً، لكنه الأكثر تجاهلًا في عالمنا)

لقد فهم الآن أن الألم لا يُلعن، بل يُفهم. يُستمع إليه. يُعامل كما نعامل دقات القلب، ونبضات السكر، وسيلان الدم من جرح ظاهر.

أدرك أنّ النظر إلى اضطراب ثنائي القطب، كما يُنظر إلى السكري... ليست خرافة، بل قفزة وعي.

ذلك الوعي الذي يجعل من المرء لا يعيش مقيدًا بأصفاد ماضٍ مظلم

ينهش بذاكرته اكتئابًا، ولا تائهًا في مستنقع قلقٍ يرسم سيناريوهات لمستقبل لم يحدث بعد.

العيش في الحاضر، كما هو، بما فيه... هو أعظم انتصار ..

وتساءل عمار في سره، بنبض حقيقي من الشفقة الهادئة :

(أمي... تلك التي هزمت جبال الوجع، ألم يأن لها أن تُريح كتفيها ؟ ألم يأن لأحدٍ أن يسألها: كيف حالك أنتِ ؟ هل ترغبين في الجلوس يومًا على كرسيّ العلاج، لا كمرافقة... بل كإنسانة ؟)

فهو لم ينسَ ما سمعه من علّام همام، الطبيب الذي لم يُشْفِه فحسب، بل منحه معنىً جديدًا للحياة :

(المرض النفسي، عندما يُترك دون علاج، لا يُنهي أحلامك دفعة واحدة... بل يُطفئها واحدة تلو الأخرى، كأنفاس شموع عيد ميلاد في غرفة بلا نوافذ) ..

عمار كان قد بدأ يشعل شموعًا جديدة، شموعًا من لوحات وأفكار، في عالم يتوه فيه الكثيرون.

وهو يدرك أن وصمة العار، ذلك الوحش المتربص خلف كل فكرة طبية نقية، هي العدو الحقيقي.

فالمجتمع يغفر لمريض القلب، ويحتضن مريض السرطان، لكنه يُقصي من يتألم بصمت داخل رأسه.

وصمة العار لا تقتل الجسد، لكنها تفتك بالروح ..

وقد أقسم عمار ـــــ في داخله، في لوحاته، وفي أوراقه ـــــ أن يستمر في

محاربة هذا العار، حتى تسقط آخر لبنة من جدار الخوف، ويُعاد تعريف الإنسان... ككائن يشعر، يتألم، ويشفى.

وكما علّمه الطبيب علّام، لا توجد عصا سحرية، بل توجد قلوب مؤمنة، وعقول قررت أن تعيش بشجاعة.

فتح الباب، وقبّل يد والدته، لا كابن فقط، بل كرفيق طريق شفاء... ومن قلبه قال دون صوت :

(شكراً يا أمي... لقد بدأتُ أراكِ حقًّا)

لعنة

الفراشة

لم يكن اختيار **غاردينيا الأبيض** للطب النفسي محض صدفة، بل نداءً عتيقاً خرج من عمق جرح قديم، صوت خفيّ نما في قلبها منذ الطفولة، عندما كانت تقف وحدها في زوايا البيت الكبير، تستمع لصوت والدها الصارم وهو يجلد ضعف والدتها بالكلمات، كأن اللغة في فمه سيف لا يَرحم. منذ ذلك الحين، بدأت تفهم الألم ، لا كفعلٍ جسدي، بل كحالة وجودية، كموجة باطنية تهدر دون أن يراها أحد.

السبب الأول لاختيارها كان حلماً بريئاً، أن تكون كاتبة، أن تقبض على الحكايات المتناثرة في الأرواح وتحوّلها إلى فصول تشفي. ومن أحقّ بالحكاية من الطبيب النفسي ؟ من أقدر على فهم العقد وصياغة فصول الطفولة المبتورة والقلوب المكسورة ؟ أما السبب الثاني، فكان إيمانها العميق بأن كل ألم نفسي له ظل عضوي، له جذر خفي في الجسد، مسٌّ كيميائي لم يُكتشف بعد. كانت تردد في سرّها أن العلم أصغر من الألم، وأن الجهل لا يلغي الحقيقة، بل يؤجل انكشافها.

لكن العلم وحده لم يكن طريقًا سهلًا لغاردينيا. لقد كان جمالها بابًا مفتوحًا للشكوك : عينان بلون العسل المصفّى، أنف منحوت برقة، ابتسامة تشبه إشراقة فجر فوق غصن لوز، وشعر أسود ينسدل على كتفيها كما ينسدل الليل على المدينة بعد شغف الغروب. كان كل ذلك يفتح لها القلوب ثم يُغلق العقول. الرجال خافوا أن تُقال عنهم كلمة واحدة : مفتونون ، والنساء خفن على مقاعدهنّ في مجتمع لا يُسامح من تتفوّق عليه امرأة مكتملة الحضور.

أما غاردينيا، فكانت تقاتل على جبهتين : الأولى لتثبيت قدميها في أرض صلبة علمياً، والثانية لتقنع من حولها أن عقلها لا يقل سطوعًا عن وجهها.

وكان بيتها القديم أول ساحة لهذه المعركة. والدها، **رياض الأبيض**، كان رجلاً يخلط القسوة بالحكمة، لكنه غالبًا ما ينسى الحكمة في جيب معطفه المعلّق. رأى في الطب النفسي ترفًا ناعمًا ، لا يليق بابنته الوحيدة، فانهال نقدًا واستهزاءً. أما الأم، فكانت ظلًّا يتلاشى مع كل نهار، صار الوعظ هو سبيلها إلى الكلام، بعدما حاصرها الرجل الذي ظنّ أن القوّة تُمارَس لا تُفهَم، فاستجابت الأمراض العضوية لجراحها النفسية، وسرعان ما رحلت، مخلفةً وراءها طفلة تعرف جيدًا كيف يكون اليُتم على قيد الحياة.

غاردينيا لم تكن فقط يتيمة، بل يتيمة في قلب بيتها. فلم يكن في حجرة الطفولة سند، ولا في خزائن العائلة حضن. فقط الكتب. فقط الأحلام. فقط وعد النفس بالهروب إلى مكان تصبح فيه النفس مرئية.

في القاهرة، خلال سنوات التخصص، هجمت عليها نوبة اكتئاب شرسة. لم تأتِ دفعة واحدة، بل بدأت كضباب يملأ النافذة، ثم تحوّلت إلى طوفان غمر روحها، أطفأ المصابيح في عينيها، وباتت تشرب القهوة مع الغياب، وتأكل مع اليأس في ذات الطبق. تكسرت رغبتها في الكتابة، صمتت أصابعها كما تصمت امرأة في منتصف ضجيجٍ لا أحد يسمعه.

كان هذا حين ظهر علّام همّام.

لا أحد يدري كيف علم بقصتها. ولا كيف مدّ يده، ولماذا اختار هو بالذات أن يتجاوز البروتوكولات الجامدة ويضعها على أول دواء مضاد للاكتئاب. لم يكن ينظر إليها كطبيبة، ولا حتى كمريضة، بل كإنسان يحتاج نورًا في آخر النفق. علّام، بقدرته العجيبة على تمثّل الآخر، على رؤية العالم من عين الآخرين، لم ينقذها فقط، بل أيقظ فيها يقينًا بأن الطب النفسي ليس مجرد أدوات نظرية، بل فعل حب، فهم، رحمة.

الطب النفسي في نظر علّام لا يزال وسيلة لدعم الصوابيّة السياسيّة **Political Correctness PC** بدل أن يغير في نظرة الناس إلى تاريخ مُذّل من خلط العلم بالسياسة، والذي بأُطره الكثيرة دفع علّام إلى الانتماء للمنظمة المناهضة للطب النفسي، ليحلم بيوم يتحرر فيه هذا العلم من أيدي السياسيين قبل السحرة.

ومن هنا بدأ حبها له. كان حبًا شفيفًا، معقّدًا، لا يُشبه القصص التي تملأ الروايات. أحبّت فيه نقيض أبيها. رجلًا يفهم لا يفرض، يسمع لا يصيح، يواسي دون أن يربّت من علٍ.

لكن الحياة لا تعطي القلب كل ما يشتهي. رحل علّام إلى حياة أخرى، إلى حبّ آخر، إلى زواج لم تكن هي أحد فصوله. وبقيت غاردينيا، كما هي، طبيبةً تضع كل مشاعرها في البحث، في المرضى، في النظرية التي تؤمن بها : أن النفس تنزف من شريان في الجسد، لم يُكتشف بعد.

كتبت ذات مرة في هامش إحدى محاضراتها :

- يوماً ما، سيتذكر العرب أن امرأةً تُدعى غاردينيا الأبيض، كانت أول من قالت إنّ في كل اضطراب نفسي أثرًا عضويًا... لكن ربما يكون الوقت قد تأخر حينها، كما تأخرتُ أنا عن الحب ..

انتهت محاضرتها الأخيرة في هدوء، وقفت عند النافذة، تتأمل مدينة تبتعد، كما تبتعد الأحلام البكر عندما نكبُر. لم تتزوج. لم تنكسر. اختارت أن تستمر. اختارت أن تشفي، كما شُفيت. اختارت أن يكون صوتها، لا شكلها، هو إرثها الباقي.

وبين صفحات أبحاثها، بقيت همسات علّام، ككلمات تُكتَب على الماء...

لا تُرى، لكنها تُشعر.

****

سمعت **ناهد إحسان،** فراشة الشاشة العربية، بنبرة خافتة من خبر تناقلته الرياح العابرة للمحيطات عن شاب يُدعى عمّار، عبقريٌّ في الرسم والرياضيات، شاب لم تكن العبقرية فيه إلا وجهًا آخر للوجع، و لم تكن المعادلات المعقدة التي يحلّها، ولا الوجوه التي يرسمها بخطوط هندسية صادمة، سوى محاولات متكررة لاحتواء ثقل الحياة بثنائي القطب.

كانت ناهد تُنصت وهي جالسة على شرفة منزلها في لوس أنجلوس، البيت الذي تشاركه أحيانًا مع أختها الطبيبة عالية، بين أشجار الجاكرندا المتفتحة بنفسجياً، وقهوة عربية تغلي فوق مدفأة كهربائية، تفكر في مدى هشاشة القلوب حين تسكنها الأمراض الخفية. قيل لها إن ذلك الرسام أقام معرضًا في قلب المدينة، لوحة لها وضِعت هناك بين لوحات فان غوخ، سيلفيا بلاث، روبرت شويمان، وآخرين من المنبوذين القدامى الذين خنقهم الألم النفسي فصاروا أيقونات.

كان للخبر وقع عجيب في قلب ناهد. شعرت أنها تُرى، أخيرًا، من منظور آخر غير عدسة الكاميرا أو عيون الصحافة الصفراء. يُرى حزنها كجزء من مأساتها النبيلة، لا كسقطة أو ضعف. ناهد التي عُرفت في الصحف كالغموض المتحرك، بسبب نظاراتها السوداء التي لم تفارق عينيها حتى في المساء، اعتادت أن يُقال عنها إنها تُخفي وشمًا فاشلاً، أو عملية تجميل لم تكتمل، أو نظرات ثعلبية لا تليق بنجمة بريئة الوجه.

لكن لم يكن خلف تلك النظارات غير كتمانٍ نبيلٍ لألمٍ لا يُحتمل. لم يكن في أعماقها غير ثقل لعنة الفراشة ، الاسم الذي أطلقته هي على رحلتها

الطويلة مع ثنائي القطب، الذي انقضّ على حياتها ككائن بجناحين: أحدهما يطير بها إلى السماء حين الهوس، والآخر يسحبها إلى هوّة سحيقة حين الاكتئاب.

ذات يوم، كانت ناهد تجلس في عيادة غاردينيا الأبيض، لا تزال في مقتبل شهرتها، حين نظرت إليها تلك الطبيبة ذات العينين العسليتين، النظرة التي لا تصدر عن عقلٍ فقط، بل عن روح. لم تتأملها كنجمةٍ على غلاف مجلّة، بل ككائنٍ على وشك الانهيار. لحظة صمت قصيرة تلتها همهمةٌ من غاردينيا :

- غاردينيا : هناك شيء على وجنتيكِ، طفحٌ صغير.. لا، ليس من الشمس، هذا ليس عابرًا ..

مرّرت غاردينيا أناملها بخفةٍ على وجه ناهد، كأنها تقرأ قصة مكتوبة على الجلد. قالت :

- غاردينيا : هذا هو طفح الفراشة.. قد يكون علامة الذئبة الحمراء ..

بهدوء مُربك، شرحت لها أن هذا المرض المناعي ليس فقط منبع الطفح الجلدي، بل قد يكون وراء اختلال التوازن النفسي، وأن اختلاط أمراض المناعة الذاتية بالاضطرابات المزاجية ليس خرافة بل فرضية علمية بدأت تجد لها أدلة قوية.

في تلك اللحظة، شعرت ناهد بشيء يتغيّر. كأن ألمها لم يعد عبئًا شخصيًا، بل لغزًا علميًا، من حقه أن يُفهم لا أن يُدان..

- غاردينيا : مدام ناهد، أعتقد أننا يجب أن نجري بعض التحاليل الدموية...

○ ناهد : لنرى نسبة الدواء الذي وصفوه لي لعلاج ثنائي القطب ؟ الليثيوم ؟

● غاردينيا : ليس ذلك فقط، بل لأن الطفح على وجهك مع قصة الإجهاضات المتكررة، يستدعي التفكير بوجود مرض الذئبة الحمامية.

كانت غاردينيا الأبيض على حقّ، بكل اليقين الهادئ الذي لا يضجّ بالكلمات، بل بالدلائل... فقد أكّد الطب النفسي الجسدي ـ ذلك العلم الناشئ الذي يجمع ما فرّقته مدارس العلاج التقليدي ـ أنّ الألم لا يسكن العقل وحده، ولا القلب وحده، بل إن النفس والجسد يتقاسمانه كما يتقاسمان الهواء، وفي بعض الحالات، كما في حالة ناهد إحسان، يتعانقان في المرض كما يتعانقان في الحب.

هناك، في ذلك التقاطع الغامض بين هوس الحياة وانكسار الجسد، بدأت رحلة ناهد مع ما أسمته لاحقاً: **لعنة الفراشة**. لم تكن مجرّد أعراض مرضٍ عضويّ، ولا موجات اكتئاب وعواصف هوس فقط، بل كانت سلسلة من الانكسارات تعيد تشكيلها كل مرة بطريقة مختلفة، تماماً كالفراشة حين تخرج من شرنقتها : جديدة، نعم، لكن مرهقة.

تطلقت ناهد من زوجها بعد أن أنهكها ضغطه لإنجاب طفل و عجزها المرضي عن إتمام ذلك بسبب الإجهاضات، كأن رحمها أشبه بخزنة عليه أن يفتحها في وقت محدد. لم يرَ آلامها الخفية، ولا سموم جسدها المتعبة، ولا حتى ضياعها في نوبات الهوس أو انهيارات الاكتئاب... كان يرى فيها أنثى ناقصة الإنجاز . طلاقها في نظر المجتمع فضيحة، لكنه كان في نظر غاردينيا الأبيض فرصة .. قالتها لها يوماً، دون أن تبتسم :

(الحرية في مثل حالتكِ دواء)

لكن الحياة لا توزّع الدواء دون ضريبة. عاشت ناهد بعد ذلك قصة حبّ جميلة مع الممثل **تيسير حنفي**، كانت قصة كأنها نُسجت من حلم قديم طُبع على ورق فاخر. كان يكتب لها الأشعار، ويصوّرها كما لم يفعل أيّ مخرج، ويؤمن بها كامرأة، لا كممثلة فقط. مثّلا معًا فيلمًا عنوانه **الفراشة**، وكانا يظنّان أنّ النهاية ستكون سعيدة. لكنها لم تكن كذلك... مات تيسير في حادث سيارة، قُبيل تصوير المشهد الأخير، المشهد الذي كان من المفترض أن يختما فيه الفيلم بقبلة، فإذا بها تختمه بالحداد.

أصاب المرض بعد ذلك كليتيها، فبدأت رحلة الغسيل الكلوي، ثم الخضوع لعملية زراعة كبدتها أختها الدكتورة عالية، تلك الطبيبة الرصينة التي تخلّت عن كلّ مشاعرها لحظة التبرع، لتكون يدها الطبية سلاح النجاة لأختها.

ولم يتوقف الألم هناك. غارت الفراشة أكثر في جسد ناهد، فأكلت من مفاصلها، ثم قلبها، وكأن المرض ـ كما قالت في إحدى مقابلاتها ـ لم يكن يعيش في دمها، بل في قدرها. لكن ناهد لم تكن ممن ينسحبون.

أصغت لغاردينيا من جديد، وهذه المرة بدأت علاجًا نفسيًا غير تقليدي، علاج **الإيقاع الشخصي والاجتماعي المتناسق**، الذي يُعيد برمجة النوم، العلاقات، النظم الحيوية... ويُعلّم الجسد أن يستيقظ كما تستيقظ الأرواح: برفق.

ومع الدواء، والتأمل، والنظام، والتركيز على الفنّ بدل الوجع، استعادت ناهد شيئًا من بهائها... لا ذلك البهاء الذي تعشقه الكاميرات، بل ذاك الذي تلمسه الأرواح المتعبة وتقول : هذه امرأة خاضت الحرب وخرجت منها لا منتصرة فحسب، بل شاعرة.

كانت في تلك الأيام تزور أختها عالية في سان دييغو، في منزل بسيط تحفّه أشجار النخيل، وتعبق فيه رائحة زيت الخزامى التي تحرص عالية على رشّها قرب النافذة. جلستا ذات صباح على شرفة تطلّ على المحيط الهادئ، تراقبان النسيم وهو يعبث بالخيوط الذهبية في شعر ناهد، حين سألت عالية :

- ○ عالية : هل سمعتي بعمّار؟ ذاك الشاب الذي رسم لكِ لوحة مذهلة في معرضه في لوس أنجلوس ؟

رفعت ناهد حاجبها، وكأنّ الاسم أيقظ شيئاً ما فيها، ثم أجابت بفضولٍ دافئ :

- ● ناهد : سمعت... هل هو ذلك الشاب الذي يعاني من ثنائي القطب أيضًا ؟

أومأت عالية برأسها، ثم مدت لها حاسوبها المحمول، وأظهرت صورة للوحات المعرض. عينا ناهد تجوّلتا ببطء على الوجوه المرسومة بخطوط تكعيبية، ثم توقفتا عند وجهها... وجهها كما لم تره من قبل. هندسيّ، شاحب، لكنه يشعّ نبضاً... وفوقه فراشة، لا تحترق، بل تطير.

قالت ناهد:

- ● ناهد : لن نكتفي بالمشاهدة على الشاشة... فلنزره كي أشكره ..

نزعت نظارتها السوداء، وضعتها على طاولة صغيرة قرب المرآة، و اصطحبت أختها الى المعرض. لم تكن ترتدي فستان سهرة، ولا تتجمّل أمام عدسات، بل ارتدت كنزة قطنية رمادية، وربطت شعرها في جديلة

و بعد ساعة، كانتا في طريقهما إلى مرسم عمّار... حيث لا تُباع اللوحات، بل تُروى فيها قصص الألم، ويُعلّق فيها الأمل، كفراشة خرجت من الشرنقة رغم كل شيء ..

دخلتا المعرض وحدهما، لا حاشية ولا كاميرات. وهناك... وسط اللوحات، رأت ناهد نفسها.

ليست ناهد النجمة، بل ناهد الإنسانة.

كان وجهها في اللوحة مرسوماً من زوايا هندسية دقيقة، عين على شكل مثلث، ووجنة كقوسٍ متوتر، وشفتان ترتجفان كحافتَي موجة.

لكن الأجمل: كانت الفراشة تحلّق فوق رأسها ، و كأنها هنا تميمة حظ لا لعنة !!

في زاوية اللوحة، كُتب بخطّ صغير:

(ناهد إحسان – امرأة تعلمت الطيران بجناحين من مرض)

وقفت ناهد صامتة، تتأمل نفسها كما لم تفعل من قبل، وهمست في سرّها :

(أخيراً، هناك من يراني كما أنا .. بلا مساحيق تجميل .. بلا أضواء شهرة ..)

التقت الأختان بعمار، شكرتاه كثيراً، وأبدتا انبهاراً بلوحاته خاصة لوحة وجه ناهد الحزين، لكن الممتلئ بالإرادة...

- عمار: اعتبر ناهد أختي في الكفاح ضد الاستسلام للمرض الجسدي والنفسي، أنا أيضاً مصاب بمرض ثنائي القطب وبمرض جسدي، كان

لأختك دكتورة عالية، تأثير قوي عليّ في تقبلي لمرضي وللعلاج...

●عالية : ناهد حبيبة الملايين، وأنت أستاذ عمار، سيكون لك مستقبل رائع.

○ عمار: أتمنى لكن المرض الجسدي يحدّ من فعاليتي كثيراً، أعاني من مرض السكري منذ صغري، أعتمد على الأنسولين لأعيش، وحياتي لا تخلو من الخوف من الغد...

● عالية : العلاج الوحيد الشاف هو زرع البنكرياس، هل فكرت في ذلك ؟ هل أنت ضده ؟

○ عمار : ضده، لا مطلقاً، أنا مؤمن بالله، وبقدرة العقل على التقدم بالعلم... الحقيقة زرع البنكرياس باهظ الثمن للغاية، غير متوفر في كثير من المشافي، لأن الإنسان لا يستطيع العيش بدون بنكرياس، عكس الكلى التي يمكن التبرع بإحداها، تعرفين عن هذا أكثر مني طبعاً يا حكيمة.. كما أن وهب الأعضاء عند الموت الدماغي أو السبات أمر غير شائع في بلدنا لأسباب دينية وقانونية عديدة...

● عالية : أفهمك تماماً، أنت محق وهذا من وجهة نظري خاطئ، فأفضل طريقة ينهي بها مريض الموت الدماغي حياته هو منح أعضائه لمن يحتاجها، فهو بذلك بشكل أو بآخر يستمر بالحياة و لو بأجزاء منه في أجساد أخرى، الموت الدماغي يعني أن الإنسان قد مات، لا يوجد انتحار في ذلك أبداً... سيصل العلم إلى يوم، يصبح بإمكان الناس فيه توريث أعضائهم إلى أحبتهم، حيث يتم حفظ الأعضاء لسنوات طويلة، في حال احتاجها أحد الأبناء أو الأخوة مثلاً...

نظرت ناهد بحزن عميق إلى شقيقتها، ثم وضعت ذراعها حول كتفها...

● ناهد : كل الشكر أستاذ عمار، يسعدني ويشرفني أن تعتبرني أختاً لك، ثنائي القطب عالم خاص، وكما رأينا في معرضك هو مرض

العباقرة والمبدعين...

طلب منها عمار التقاط عدة صور للذكرى. وقفت ناهد على يساره، وعالية على يمينه، وبينهما لوحة ناهد تتوسّط كأنها الترجمة الصادقة لكلّ الحكاية. التصق الثلاثة بلحظة سكينة، فالتقطت الكاميرا لا مجرد صورة، بل توقيتاً نادراً للحياة عندما تُقرّر أن تكون جميلة، رغم كل ما فيها من وجع.

كان اللقاء قصيراً، لكنه امتدّ في أثره طويلاً، كما تمتدّ لحظة صمت في قلب موسيقى...

****

لم يكن ما ينتظر عالية سوى قدرٍ مكتوب بالحبر الخفيّ للفراشات... فراشات لم تكن تُحلّق، بل تحوم بصمت فوق رؤوس من ابتلعهم الألم النفسي والجسدي معًا. وإن كانت ناهد قد نُسجت من أجنحة فراشة الذئبة الحمراء، فإن أختها عالية كانت تتهيأ لحمل فراشة أخرى، أخطر، أعمق، أكثر فتكًا وغموضًا : **الورم الأرومي الدبقي**، ذاك الذي يُعرَف مجازيًا في كتب الأشعة **بورم الفراشة**، لأنه يعبر بوقاحةٍ جسور المخ ويغرز جناحيه في شطري الدماغ كأنما يهمّ بالتحليق، لا إلى السماء، بل إلى الجحيم..

كان الألمُ في بدايته مجرد صداع... صداع كالحاح المطر، يأتي ويذهب، لكن في داخله نذرٌ خفيّ، كما لو أنّ في رأسها ندبة لا تُرى، بل تُحَس. لم تدرك عالية أن حفيف الخطر قد بدأ حينها يدوّي في صمت جسدها، ولا أن الفراشة التي التهمت وجه أختها كوشم جلديّ ستقرر ذات يوم أن تسكن دماغها هي، لا الوجه.

أجرت التصوير، وجاءت الصور، فظهرت الحقيقة : ظلال غير منتظمة على الشاشة، بقع معتمة عابرة **للجسم الثفني** الذي يربط نصفي الدماغ ، كأنما عقلها رسمَ بنفسه صورة النهاية. في المركز تمامًا، في صلب المكان الذي تلتقي فيه الأفكار، استقر الورم كحقيقة جائرة، دون سابق إنذار. وقال لها الطبيب بتلك النبرة الطبية الخالية من الزخرف : ورم الفراشة ... لكن ما سمعته هي كان لعنة الفراشة..

لأول مرة، لم تُكذّب ناهد إشاعات ذهنها. ربطت بين كلّ شيء وكأنها تعيش في أسطورة هندسية دقيقة : اسم الفراشة، شكلها، تشابه الأعراض، عيون أختها التي بدأت تنطفئ شيئًا فشيئًا. جلدت نفسها بسياط اللوم ، بأنّها جلبت لعنة الفراشة إلى واقع أختها بفعل تفكيرها المفرط بها ، بفعل الهوس والقلق والحكايات التي لم تتوقف عن الدوران.

صفعت عندها بوادر متلازمة **الفجع/الفقد Grief** ناهد بقوة، وهجم الاكتئاب على عالية كنسر ينتظر موت أحلامها، فيأكلها... ثم كانت غاردينيا الأبيض، مرة أخرى... هذا الحضور العجيب الذي لا يشبه الأطباء، بل يشبه الأرواح المتنكرة بثوب علمي. لم يكن العلاج دواءً فقط، بل كان عودة إلى الإنسان في قلب الإنسان. استخدمت معها **علاج الكرامة**، ذاك النوع من العلاج الذي لا يقتصر على استعادة التوازن، بل يفتح نافذة على إرث الفرد، على إمكانية أن يُصبح ما تبقّى من الزمن سببًا في استمرار معنى أوسع.

فكرت عالية، بصفاء غير مسبوق، أنها لم تعد تملك زمام الحياة، لكنها تملك زمام ما تفعله بها. فقررت: أن تهب أعضاءها، أن تتحول هي ذاتها، في لحظة الغياب، إلى نورٍ جديد يُزرَع في جسد شخص آخر، إلى حياة ثانية تنمو من رماد الأولى.

و بالعودة إلى معرض عمار ، الذي بدا وكأنه لوحات حياة معلّقة بين الماضي والمستقبل، بين الأمل واليأس، فعقب خروجهما منه ، نظرت عالية إلى السماء... لم تكن تتحدث، لكن قلبها كلّمها .. كانت تدرك أن الزمن لن ينتظرها، وأن المرض لن يرحمها، لكنّ لها الآن سلامًا جديدًا، لا يشبه الاستسلام، بل يشبه فهمًا عميقًا للأقدار.. أما ناهد، فبقيت تنتظر إلى أختها كما لو كانت تنظر إلى مرآة مستقبلٍ لا تعرف شكله بعد، لكنها عرفت حينها أن الحزن لا يكون كاملاً ما دام الأمل موجودًا في صدر الآخر... ولو كان صدرًا يستعد للرحيل.

● عالية : لا مكان أفضل لبنكرياسي من شخص يراك أخته.

○ ناهد بحزن : يا الله كم أحبك، كم أنت مبهرة ونبيلة، حصلتُ على الشهرة فيما استحقيتها أنت بكل تفاصيلك، بكل حياتك...

● عالية : أنت حبيبتي، صديقتي، أمي وأختي وفي جيل قادم ستكونين ابنتي، نحن نؤمن بالتقمص، لا تنسي ذلك...

○ ناهد : سأكون ابنتك، بإذن الله، أعدك بهذا، إن حق لي الوعد...

● عالية : إذن فقد اكتملت اللائحة يا قلبي ؟

○ ناهد : بقي مريض الكبد فقط، غالباً سيكون السيد فارس الذي يعاني من تشمع كبد على خلفية إصابته بداء يدعى **ويلسون**، وهو مرض يترسب فيه النحاس في الكبد، فيدمره.

● عالية : اقرئي لي اللائحة حتى الآن..

○ ناهد :

القرنية : السيدة **ثريا**، عانت من **التهاب قرنية فيروسي** دمر قرنيتها، فذهب معها حلمها بأن تصبح رسّامة...

الرئتان : السيد **صالح** متزوج ولديه ثلاثة أطفال صغار، ذهب برئتيه

فيروس الكورونا.

الكبد : السيد **فارس،** أرمل ولديه طفل وحيد، أكل كبده **مرض ويلسون.**

القلب : **لبنى** في العشرينيات من عمرها، تحلم في أن تصبح معالجة نفسيّة، هي مصابة **بمرض قلبي خلقي** منذ ولادتها.. خضعت لجراحات كثيرة، عاوض القلب كثيراً، حتى فشل...

الكلية : لابنة المتبرع الذي أعطاني كليته يوماً، أصابها **القصور الكلوي بسبب ارتفاع الضغط غير المعالج...**

و **البنكرياس** : للمبدع الشجاع **عمار** الذي يعاني من الداء السكري ..

بعد شهر من زيارة معرض عمار، ساء وضع عالية كثيراً، رأتها ناهد تتكلم مع نفسها أمام المرآة..
لم تعرف تاريخ اليوم، ولا أين هي، نظرت إلى ناهد بارتياب..

● عالية : قلت لك يا أمي أنني نجحت، لمَ تلحقين بي إلى المدرسة ؟

○ ناهد : أنا ناهد يا عالية، حبيبتي، هل أنت بخير؟

وفي ذات اليوم بعد الظهر، قالت عالية لناهد:

● عالية : ناهد، ناهد، من هذه ؟

وأشارت إلى المرآة..

○ ناهد : هذه أنت حبيبتي الدكتورة عالية إحسان، النبيلة، الطيبة، الجميلة...
● عالية : لا، لا لست أنا، انظري ..

رفعت عالية يدها اليمنى، فرفعت الصورة في المرآة اليد اليسرى...
فزعت عالية :

● عالية : ماما.. ماما.. أنقذيني، انظري، هذه قرينتي.. شيطانتي، أنقذيني...

بكت ناهد، واتصلت فوراً بعيادة الدكتورة غاردينيا الأبيض، كانت الطبيبة ماتزال في مصر، فحكت للطبيب المناوب ما يحدث.

○ ناهد : أختي عالية ليست بخير، لا تعرف الزمان ولا المكان، تناديني أمي.. وفوق هذا لاتعرف نفسها في المرآة...

● الطبيب المناوب : ما تقولينه يصف **الهذيان Delirium** ، خذيها إلى المستشفى حالاً، في الهذيان السبب غالباً عضوي، وعالية في حاجة إلى تحاليل دموية ومراقبة...

كان الطبيب على حق، كانت آثار الورم قد استفحلت وتغلغلت حتى احتلّت الدماغ بأكمله، كظلٍ ثقيل يغطي سماء الليل بلا رحمة. الأيام التي تلت جاءت ببطء مرير، وكأن الزمن نفسه تراجع عن حركته، ليترك عالية في غيبوبة عميقة، دون رد فعل سوى أنفاسها المتقطعة التي لم تعد تكفيها لتبقى على قيد الحياة. في ظلمة الليل، اضطر الأطباء لوصلها **بجهاز التهوية الآلية**، ذلك المنفس الذي كان آخر أمل يحفظ لها حياة تتلاشى بموت دماغها .

لكن الموت، ذلك الضيف الذي لا يُرغب به، لم يكن سوى مسألة وقت. وفي صباح يوم صامت ثقيل، جاء مصير عالية المكتوب، مسطورًا في وصيتها الموقعة والمصدقة أصولاً، التي حملتها ناهد بين يديها المرتجفتين، تحمل في ثناياها قرارًا شجاعًا **بإنهاء دعم الحياة**، وفتح باب

العطاء الأخير : **التبرع بأعضائها الثمينة.**

تم نزع أجهزة دعم الحياة تدريجيًا، وكأن الروح تُحرر من قيود الجسد المنهك، في لحظة انطفاء بدا فيها العالم خفيفًا وثقيلًا معًا. وكانت دموع ناهد كساقية لا تنضب، تتساقط بصمت على جناحي فراشة وجنتيها، تحمل معها ألميًا لا يوصف، لكنها تحمل أيضًا وعدًا بينهما، وعدًا بالحياة التي تستمر.

حينها، أقسمت ناهد بأن أختها ستكون ابنتها في جيل قادم، أن تحمل معها إرثها، أن تستمر حيث توقفت الأجساد.

غابت عالية جسدًا، لكن روحها لم تغب عن الأرض، بل انتشرت في أنحاء الحياة. السيدة ثريا أصبحت ترى بقرنيتيها، السيد صالح تنفس من رئتيها، والسيد فارس استلم كبدها قبل أن يغادر الحياة بسبب فشل كبده. أما البنكرياس، فقد كتب في الوصية أن يذهب إلى السيد عمار، ذلك الشاب العبقري الذي كانت صدفة القدر قد منحته هدية شفائه من داء السكري الذي أنهكه لسنوات.

لقد أحب عمار ناهد حبًا يفوق الكلمات، وكانت هي مثله الأعلى في الصبر و العزيمة .. وما من سعادة أكبر من أن يحمل جسده جزءًا من جسد أختها، رابطًا بينهما أبديًا. الآن، هو أخو ناهد من ناحية البنكرياس، يحمل عبء محاربة الوصمة النفسية ، ويسير في طريق الاستمرار، حاملاً معها معاني الحياة والتضحية والأمل.

****

القمر يتلألأ بألوان متعددة في السماء، يسرق الأنظار بجماله الهادئ، لكنه في جوهره عاتم، مجرد مرآة تعكس ضوء الشمس الساطع. هكذا هي الحقيقة في كثير من الأحيان : ما نراه لا يكون دائمًا ما هو عليه فعلاً، فما يظهر لنا من وهج قد لا يكون إلا انعكاسًا لشيء أعمق، أكثر نورًا من ذاته.

ليس كل ما نعتقد بوجوده موجود فعلاً، فهناك عالم من الظلال والأوهام التي نرسمها في خيالنا، وأشياء نريدها بقوة حتى تتجسد في ذواتنا، مثل ضوء القمر البعيد، الذي لا ينبعث منه نور، لكنه يمنحنا وهجًا يهدينا في ظلمة الليل.

وفي المقابل، هناك حقائق لا تغيب، قوية لكنها غير مرئية، مثل أشعة الشمس التي تخترق الغيوم وتدفئ الكون، لا نراها بعيوننا لكنها تُحس، تمنحنا الحياة وتكشف لنا الجمال في كل ما حولنا.

هكذا هي النفس البشرية، لوحة فنية معقدة، ملونة بتدرجات المشاعر المتعددة، تأثرت برضوض الطفولة وتجارب الحياة، محاطة بغيوم الأمراض التي قد تظلم الأفق أحيانًا. لكن رغم كل هذه العتمة، يجب أن يظل إيماننا مشعًا بأن ضوء الله وروحه الداخلية لا ينطفئان، بل يستمران في الإشعاع حتى في أكثر اللحظات ظلمة.

وإذا بلغت تلك العتمة من ألوان النفس حدًا فقدت معه ثقتك بنفسك، وأضعت أحلامك وغدك، فلا تيأس، فهناك دائمًا ملاذ الطب النفسي، الذي يمنحك التفسير، الذي يفتح أمامك باب الحل، ويساعدك على استعادة ذلك النور الذي بدا لك بعيدًا، ليصبح مجددًا منارة تهدي دربك في ظلال الحياة.

****

الواقع، بكل قسوته، لم يأتِ إلا بحصاد من البؤس المتجدد، الألم المستديم، والخذلان الذي يثقل كاهل النفوس، كأنه قيد لا يُكسر، وسلسلة من الأوجاع التي تتكرر بلا نهاية. لكن، هل يمكننا أن نستسلم لتلك القسوة ؟ هل نسمح للظلام أن يبتلع ألوان أحلامنا وأمالنا ؟ لا، هناك دومًا باب يُفتح في دروب الخيال، في مملكة الكلمات التي تبني عوالم لا تنحني أمام مرارة الواقع.

دعنا نحلق معًا بعيدًا عن هموم هذا اليوم، نحو الغد الذي نحلم به، ذلك الغد الذي ترقص فيه الجنيات بأجنحة مضيئة، حيث تتلو العرافات أسرار الحب، وتغمرنا أرواح ساكنات الكواكب الأخرى بألغازها الساحرة.
هناك، في تلك العوالم المسحورة، نستلهم الإبداع، ونجد مفاتيح جديدة لقراءة الحياة، كي نعيد تشكيل حاضرنا بكلمات ملؤها السحر والجمال.

كيف نفعل ذلك ؟

ببساطة، نكتب. نكتب عن الفلسفة التي تُسائل وجودنا، عن الأدب الذي يروي قصص الروح، عن العلم الذي يفتح أبواب المعرفة، وعن الحب الذي ينعش القلب ويرسم المستقبل. نكتب في مجالات الفن الذي يرسم العالم بألواننا الخاصة، والأخلاق التي ترشدنا في ظلمات الحياة، والرياضة التي تمنحنا روح التحدي، والحياة بكل تفاصيلها المعقدة والجميلة. نكتب أيضًا في الطب النفسي، حيث تتلاقى العواطف والعقول، وحيث تتفتح أبواب الشفاء.

وفي أعماقنا، يكمن ما هو أكثر من مجرد وجود مادي أو صراع يومي. في مرايانا، حيث تتداخل الأوهام مع الحقائق، ينبض شيء ما، ليس الموت الذي يخيفنا، بل حياة خفية تتدفق في شرايين الروح. تلك الحياة التي هي شرارة الله التي وهبنا إياها، الروح التي ترفض الاستسلام.

فكيف لنا أن نستسلم ونحن نحمل في داخلنا نورًا إلهياً ينبض بقوة الحياة ؟

كيف نرضى أن نكون سجناء الواقع القاسي، بينما أرواحنا معلقة بين السماء والأرض، تتوق إلى أفق جديد ؟

لنكتب إذن، نكتب بلا توقف، نكتب لنحتضن الحياة بكل ألوانها، نكتب لنستعيد ذاتنا، ونحيي أملنا، ونصنع غدًا ينبض بالسحر والحكمة والإيمان.

أثر الفراشة بنكهة طبية ..

الحواريات:

الأولى: **ملائكة تعيش بيننا**

الثانية : **كرة أمبادوقليس**

الثالثة : **تيلوميراز**

الرابعة : **كارما**

الخامسة : **حلاوة الروح**

السادسة : **أطفال خارقون**

السابعة : **عبقري بالصدفة**

الثامنة : **الألم حارس الحياة**

التاسعة : **لعنة الفراشة**